19me, année No 942

Le Caire 23 — 7 — 1951

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

١٠٠ فى مصر والسودان

١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى

ثمن هذا العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين

رقم ٨١ — عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ٩٤٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٩ شوال سنة ١٣٧٠ — ٢٣ يوليه سنة ١٩٥١ — السنة التاسعة عشرة »

متى يغضب الفلاح ؟

الرضا والقناعة والصبر هى الصفات المميزة للفلاح المصرى . تأصلت فيه بالطبع والوراثة والبيئة والعقيدة ، فأثرت فى حياته ، وهيمنت على سلوكه ، وتصرفت بهواه !

يستبد بحكمه طاغية كالحاكم بأمر الله فيستكين ؛ ويثب على عرشه خصى ككافور فيخضع ، ويملك عليه امرأة كشجرة الدر فيطيع ؛ ويسيطر على أمره الأجنبى فيرضى ؛ ويستأثر بخيره المستعمر فيقنع ؛ ويخطمه بالذل صاحب الحكم فينقاد ؛ ويسمع بالأحداث تتدفق على وطنه وتتوائب على قومه فلا ينبض فيه عرق ولا يغلى له جوف ! كأنما كل امرئ فى الريف أمة وحده : شأنه يغنيه ، ورزقه يكفيه ، وكوخه يؤويه ، وكل ما خرج عن غيطه وبيته لا يعنيه !

تقرع سمعه الأحاديث النكر عن وزير من الوزراء نشأ على تلال القرية كما نشأ ، وذاق بؤس الحياة كما ذاق ؛ ثم رفعته الظروف العجيبة والصروف العجيبة إلى كرسى الحكم ، فتاه وتكبر ، ثم طغى وتجبر ، ثم سرق وغصب ، ثم جامل وحابى ، ثم تاجر ورابى ، ثم أمكن عشيرته من دماء الشعب وأموال الأمة ومرافق الدولة ، فاستحلوا ما حرم الله ، واستباحوا ما حظر القانون ، واستجازوا ما منع الخلق ، فيسمع كل ذلك بأذن من طين ، وأخرى من عجين ، كما يسمع الصوفى المتكف أنباء الرياضة أو أخبار البرصة !

لا يغضب لمضرة عامة ، ولا يرضى لمنفعة بعيدة ؛ إنما يغضب أو يرضى تبعا لما يلقى من الشر أو الخير فى أهله أو حقله أو بهيمته. يرضى عن الحكومة ويصفها بالصلاح إذا أعفته من تكاليف الخفر ، أو كافأته على حراسة النيل ، أو خفضت له أجرة السفر على السكة الحديد ، أو وزعت عليه بعض الفدادين ، أو ارتفعت فى عهدها بالمصادفة أسعار المحاصيل . ويسخط على الحكومة ويرميها بالفساد إذا ظهرت الدودة فى حقول القطن ، أو فشا الطاعون فى حظائر الماشية ، أو نقص الماء فى قنوات الرى ، أو هبط سعر البيض فى سوق البندر !

ذلك لأن الفلاح ابن الأرض ، لا يكاد ينزع جسده من حضنها ، ولا يخرج يده من طينها ، ولا يفهم الحياة إلا مضافة إليها أو مقدرة بها ، ولا يمد بصره إلى أبعد من حدودها . والقائمون على أمره ، القابضون على زمامه ، لا يريدون أن ينبهوه إلى أن فوق هذه الأرض سماء فيها الروح ، وفيها الطموح ، وفيها الكرامة ، وفيها الأمل ، وفيها الرفعة ؛ وأن اللاصق بالأرض حيوان ، والعالق بالسماء ملك ، والإنسان خلق دون هذا وفوق ذاك .

فما دام الفلاح وهو سواد الشعب ممدوداً فى دود الأرض يزرع ليأكل ، ويحفر لينام، ولا يهمه أن ظلم حكامه أو عدلوا ، وجد زعماؤه أو هزلوا ؛ وسواء عليه أخرج المحتلون أم بقوا ، وسعد مواطنوه أم شقوا ، فهيهات أن يكون لنا رأى عام وحكم صالح ودستور صحيح ووطن مستقل ! ومتى استنار ما أظلم من نفسه ، واستيقظ ما غفا من حسه ، أدرك أنه مصدر السلطة ومورد الثروة وعماد الأمة ، فلا يقبل أن يهمله حاكم ، أو يستغله ظالم ، أو يتغفله زعيم . ولكن ليت شعرى بأى طبل يسمع ؟ وبأى بوق يفيق ؟ !

احمد حسن الزيات

مصـــــر

للأستاذ أبو الفتوح عطيفة

مصر جنة عالية قطوفها دانية ، وصحراء جدباء لا زرع فيها ولا ماء .

وهى بلد العجائب والمفارقات : بل إنى أعتقد أن الطبيعة التى قسمت مصر إلى واد أخضر يانع ضيق، وإلى صحراء واسعة، قد قسمت مصر بنفس النسبة إلى عجائب ومتناقضات

فمصر دولة غنية فقيرة ، قوية ضعيفة ، متعلمة جاهلة ، مؤمنة متحررة ، ناهضة متأخرة ، راضية ساخطة ، مستقلة محتلة ، حرة مستعبدة، وهى دولة شرقية توشك أن تصبح دولة غربية !

نعم يا أخى! مصر دولة غنية: فيها الثراء الفاحش والغنى البالغ والترف الزائد . فيها قوم يمتلكون الضياع الكبيرة والعمارات الشاهقة وأسهم الشركات الرابحة والسيارات الفخمة . يسكنون القصور والدور الواسعة. لهم الخدم والحشم والأتباع والأنصار . يقضون شتاءهم فى القاهرة وإن قضوا جانبا منه فى مشاتى الأقصر وأسوان ، ويقضون صيفهم فى الإسكندرية. وربما دفع الكثيرين منهم الترف إلى السفر إلى أوربا لقضاء الجانب الأكبر من أشهر الصيف القائظ . وهؤلاء القوم مسرفون فى ترفهم . ولقد بلغت قيمة ما أهدى إلى أحدهم — بمناسبة زفافه — من ورود سبعة آلاف جنيه !

وفى مصر فقر مدقع : فيها أقوام يعيشون على الكفاف ، أجور مبخوسة وأرباح ضئيلة ، حياتهم بؤس ومنازلهم أكواخ . بل إن بعضهم لا يجد المأوى فيقضى ليله فى العراء يتخذ من الأرض مضجعا ومن السماء والهواء غطاء ولا يجد ماء ولا غذاء ولا كساء ! ومن العجيب أن نسبة المترفين من الأغنياء إلى الفقراء تشبه إلى حد كبير النسبة بين الوادى وبين الصحراء ! قلة مترفة وأغلبية بائسة

ومصر دولة قوية: يؤمن أبناؤها جميعا بأن من حقها — وقد كانت فيما مضى مرموقة المكانة مرفوعة الرأس شامخة العز والمجد — أن تسترد ذلك الماضى الزاهر، وأن تحتل مكانها اللائق بها بين الأمم شرقية وغربية . وقد ضرب أبناؤها من متطوعين ومن جند ومن ضباط فى حرب فلسطين الأخيرة أمثلة عليا فى الشجاعة والبطولة ، وقدموا أرواحهم فداء للوطن ! ! (العربى والمصرى)

ولكن مصر مع هـذا دولة ضعيفة، فجيشها برغم قوتروحه المعنوية وبرغم شجاعة ضباطه وجنوده ؛ ما يزال بعيدا عن مكانه المرموق . ولا تقع تبعة ذلك على مصر أو على المصريين . وإنما يرجع ذلك إلى موقف إنجلترا من مصر . ذلك أنه بمقتضى معاهدة الصداقة والتحالف بين مصر وإنجلترا سنة ١٩٣٦ تعهدت إنجلترا بإمداد مصر بما تحتاج إليه من أسلحة وذخائر . ولكن إنجلترا — رغبة منها فى بقاء مصر ضعيفة — ما تزال حتى الآن تماطل فى إمداد مصر بما تحتاج إليـه من أسلحة وذخائر . وربما كانت مصر الصديقة القوية خيراً لإنجلترا من مصر الضعيفة، ولكن « الثعبان » البريطانى لا يؤمن بذلك

ومصر دولة متعلمة : فيها جامعات أربع ومعاهد متعددة ومئات من المدارس الثانوية وآلاف من المدارس الابتدائية والأولية . فيها تعليم مدنى وفيها تعليم دينى يشرف عليه الأزهر الشريف ، ومع هذا فما تزال الكثرة فى مصر جاهلة . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نرى أن الحياة العلمية فى مصر ما تزال دونها فى أوربا وأمريكا. ولقد حلق أدباؤنا فى آفاق الأدب وبلغ بعضهم مكانة ينافس بها أعظم الأدباء العالميين . أما علماؤنا فما يزالون فى حاجة إلى أن ينهضوا وإلى أن ينشطوا حتى يلحقوا بزملائهم من علماء الغرب

ومصر دولة مؤمنة : فيها أقوام يؤمنون بربهم أشد الإيمان وزادهم ربهم هدى . يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة . ويخلصون لله فيما بينهم وبين أنفسهم ، ويعملون الصالحات ويخشون ربهم ويسمون لرضاته

ومع هـذا فإننا نرى قوما قد تحللوا عن آداب دينهم وعن تقاليد مواطنيهم وعاداتهم ، فإذا أقبل الصيف هرع القوم إلى موانئ البحر : الإسكندرية ، وبورسعيد ، ودمياط ورأس البر والسويس . وهناك ينزل النساء إلى البحر كاسيات عاريات

كأنهن على شواطئ كاليفورنيا أو دوفيل ، فإذا خرجن من الماء استلقين على الرمال وقد برزت منهن النهود وتعرت السواعد والسيقان والأفخاذ ، وتناثرت الشعور ونسوا تماما قوله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما »

ومع هذا أيضا ففي مصر عائلات محافظة وبيوت ما تزال تحافظ على تقاليد الإسلام أشد المحافظة . بل إنه ما يزال هناك قوم في صعيد مصر لا يسمحون للمرأة أن تخرج بتاتا ، وتغادر البنت دار أبيها يوم زفافها ولا تعود إليها إلا في الضرورة القصوى، وإذا خرجت فإنما يكون ذلك إذا انتصف الليل وخلت الطرقات، وتؤدي الزيارة وتعود بنفس الحال. وأما ملابسها فتغطي كافة الجسم من أعلى الرأس إلى إخمص القدم

وهكذا ترى في مصر ورعا وتقوى ، وتبرجا وخلاعة ، ورجعية وتعصبا !

ومصر أمة ناهضة : تحاول جاهدة أن ترقى بجميع مرافقها ومواردها زراعية وتجارية وصناعية ، ومع هذا لم تستطع مصر أن تبلغ غايتها من التقدم

ومصر أمة زراعية: وما تزال الطرق البدائية هي الطرق المتبعة في الزراعة، ولم تستخدم الآلات الزراعية الحديثة إلا لدى كبار الملاك والزراع والشركات . على أن أرض مصر خصبة وتربتها جيدة وفلاحها صابر مثابر . كل أولئك ضمن لمصر محصولا وافراً وخيراً عميما

أما الصناعة المصرية فقد خطت خطوات كبيرة نحو التقدم، واستطاعت مصانع الغزل والنسج أن تمد مصر بما تحتاج إليه من أقمشة . ونحن نرجو للصناعة في مصر مستقبلا زاهراً ؛ فهي الأمل الوحيد لحل مشكلات مصر وخاصة الناتجة عن تزايد عدد السكان المستمر

وهناك مرافق مصرية تفيض بالذهب على الشركات الأجنبية، أهمها قنال السويس وموارد البترول على شواطئ البحر الأحمر . فهل تؤممها مصر ؟

وأهل مصر فريقان : قلة مترفة لاهية، وكثرة ساخطة تعاني من ويلات الحياة الكثير. وأنت تسمع بين آن وآن عن تذمر مختلف الطوائف وشكواها، وليس من شك أن مصدر الشكوى يرجع أولا وقبل كل شيء إلى الغلاء الذي استشرى حتى شقت على الناس الحياة . وإني أرجو أن يقلل السادة المترفون من ترفهم، وأن يوجهوا بعض أموالهم وجهودهم نحو إنقاذ الطبقات الفقيرة فإن ذلك خير لهم وللوطن وأجدى

ومصر أمة مستقلة وعضو في هيئة الأمم المتحدة: ومع ذلك فإن الجنود البريطانيين يحتلون منطقة قنال السويس من أرض مصر ، ومصر وأبناؤها لن يرتضوا هذا الوضع، ولابد أن ينتهي الاحتلال إن عاجلا أو آجلا. سواء رضيت إنجلترا أو لم ترض

أما بعد :

فهذه مصر.. وأنا أرجو أن يحدثنا أدباء الأقطار الشقيقة كل عن قطره حتى يتم بيننا التعارف وإني لهم من الشاكرين

أبو الفتوح عطيفة

المدرس الأول للعلوم الاجتماعية
بسنود الثانوية

علاقة الأدب العربي بالأدب

السوفييتي في القوقاز

للأستاذ شاكر الدبس

منذ سنتين ونيف تقريباً قامت في الاتحاد السوفييتي حملة أدبية الغاية منها العود إلى المنشأ الصحيح للأدب والفن اللذين تمتاز بها شعوب هذا الاتحاد. وهذا بحسب رأيهم لا يعني أنهم يرفضون قبول أي أدب صحيح يأتيهم من الخارج، وإنما يريدون أن يثبتوا للملأ أن ما ينسبونه في أدبهم إلى أدب أمم أخرى هو في الواقع غير صحيح. وعلى هذا الأساس نشرت المجلة الأدبية السوفيانية (ليترانورنايا جازيتا) في عددها الصادر في ١٣ يناير لسنة ١٩٤٩ مقالا مطولا باللغة الروسية للأستاذ كليموفتش في موضوع « المهمة الأدبية اليومية الضاغطة » عالج فيه هذا الموضوع معالجة دقيقة تخلص منها إلى نفي القول بأن الأدب في الجمهوريات السوفيانية في القوقاز يرجع إلى الأدب العربي. وقد آثرت نقل خلاصة عن هذا المقال لخطورته، لماله من العلاقة المباشرة بنا

بعدما يتكلم كليموفتش عن مكانة الأدب في حياة الشعوب السوفيتية، وعن الاهتمام بجمله يتفق مع « التاريخ الأدبي الخطير الذي امتازت به روسيا »، يعود فيلقي تبعة كبرى على الأدباء في ضرورة تحري الحقائق في تاريخ الأدب في الشرق السوفياتي. ومن ثم يبدأ بحث هذا الأدب وعلاقته بالأدب العربي فيقول بأنه يعتقد بوجود علاقة بين الأدب في هذه الجمهوريات وبينه في تركيا وإيران والعالم العربي؛ ولكنه في نفس الوقت ينكر كل الإنكار ما يذهب إليه بعض الأدباء بأن منشأ الأدب في هذه الجمهوريات السوفيانية هو الأدب التركي والإيراني (الفارسي) والعربي. ولكي يضع النقط على الحروف ويفهم شعوب الجمهوريات السوفيانية الشرقية ما هي علاقة أدبهم بالأدب العربي يقول:

« إن العرب عندما تخطوا حدود جزيرتهم العربية في القرن السابع الميلادي، وتغلبوا على بلدان أخرى، ألفوا منها إمبراطوريتهم الأقطاعية التي عرفت باسم الخلافة، وهدوا شعوبها إلى الإسلام، عملوا على نشر لغتهم كلغة رسمية، على أساس أن القرآن قد أنزل بها، وأنها لغة الله نفسه؛ وأن ترجمة القرآن إلى لغات هذه الأمم كان في نظرهم تجديفا. أما من ناحية مستوى العرب الثقافي فقد كانوا أقل حضارة وثقافة من الكثير من الشعوب التي تغلبوا عليها ولكي يحافظ العرب على سيادتهم عملوا على التخلص من تراث الأمم الأخرى الأدبي والفني. فبإمكاننا أن نقول إن هذه الطريقة التي استخدمها العرب لترسيخ قدم أدبهم وثقافتهم في البلدان التي تغلبوا عليها قد كانت السبب الرئيسي المباشر في فقد هذه البلدان تراثها الأدبي الذي كان لها قبل الفتح العربي. وعلى الرغم من نضال هذه الأمم للابقاء على أدبها وثقافتها فقد اضطرت إلى استعمال اللغة العربية، هذه اللغة التي فرض العرب استعمالها فرضا في إمبراطوريتهم المترامية الأطراف، التي امتدت من الصين والهند شرقا إلى مراكش والأندلس غربا. وما يسمى بالأدب العربي والعلوم العربية والثقافة العربية فقد أنشأها على الغالب غير العرب، أي الأمم التي تغلب عليها العرب وحكموها »

وقد استشهد كليموفتش في مقاله هذا بالأستاذ روزين، أستاذ اللغات الشرقية في بطرسبرج (لينينغراد) في سنة ١٨٧٢ الذي قال: « إن العرب مدينون في أدبهم وعلومهم إلى الفرس والسريان. غير أنه لما كان هذا الأدب وهذه العلوم قد دونت باللغة العربية فقد عزى الفخر في هذا الجهد العلمي والأدبي والثقافي إلى العرب يوم كانت أوربا غارقة في ديجور حالك من الجهل »

واستشهد أيضا بما قاله كراتشوفسكي في سنة ١٩١٩، إذ قال: « إن القول بأن الأدب العربي هو من صنع الأمة العربية إنما هو خطأ فادح، ذلك لأن الفضل في وجود هذا الأدب يرجع إلى غير العرب (الأعاجم) الذين دونوا أدبهم باللغة العربية، وحتى إلى اليهود والسريان والأسبان والأتراك والأقباط والبربر الذين اشتركوا في إيجاده » (راجع كتاب الأدب في الشرق لمؤلفه كراتشكوفسكي ١٩١٩)

ثم يعود فيقول : « ومن المعروف الآن أن العرب — بما حصلوا عليه من فخار نسب إليهم فى حقلى الأدب والعلم — مدينون إلى الكثيرين من مواطنينا؛ كالأدباء الذائعى الصيت فى أذربيجان وآسيا الوسطى ، ومنهم الفارابى وابن سينا والخوارزمى والبيرونى وسواهم . ومما هو جدير بالذكر أنه قد ثبت لمجمعى العلوم فى أذربيجان وأوزبا كيان أثناء تحريهما العلمى عن منشأ الأدب فى بلاديهما ، أنه ليس من أصل عربى بل من أصل أذربيجانى وأوزبا كيانى كان قائما فى البلدين قبل الفتح العربى . وقد بحث المجمع العلمى فى جمهورية يوزك السوفياتية منشأ العلم والفلسفة العربيين فتوصل بنتيجة ذلك إلى الحقيقة التالية وهى : « أن الاصطلاح المعروف « بالفلسفة العربية » ليس صحيحاً ، ذلك لأنه قد اشترك فى إيجاد هذه الفلسفة مدارس فلسفية متعددة ضمت أعضاء ليس من العرب فحسب ؛ بل أيضا من شعوب الشرق الإسلامى . ومع هذا فإن عددا من العلماء قد تجاهلوا هذه الحقيقة وعزوا هذه الفلسفة إلى أصل عربى »

ويستأنف الأستاذ كليموفتش مقاله بقوله : « إن وحدة اللغة فى بلد ما لا تعنى وحدة الأدب فيها » . واستشهد على صحة نظريته هذه بأن أعطى مثلا على ذلك وحدة اللغة بين إنكلترا والولايات المتحدة الأمريكية فى حين أن لكل من هذين البلدين أدبه الخاص به . وأعطى مثلا آخر على ذلك بلدان غربى أوربا التى كتبت فى العصور الوسطى باللغة اللاتينية ،وفى نفس الوقت لم يكن منشأ الأدب فيها لاتينيا . ثم استشهد بكتابات أدبية أخرى تعرف باليوتوبية (الخيالية) كتبها الكاتب الإنكليزى (توماس مور) باللغة اللاتينية ، ومع هذا لم تخرج عن كونها أدبا إنكليزيا صرفا

وعلى هذا الأساس قال كليموفتش : « إذا ما عثرنا على قطعة أدبية أو فنية أو فلسفية وأردنا أن نعرف ما إذا كان منشؤها عربيا أو فارسيا أو من أى أصل آخر فيجب علينا والحالة هذه أن نتحقق أولا عن كاتب هذه القطعة ، وأين كتبها ، وما هى مضامينها الفكرية ، وما هى صبغتها الوطنية . مثال ذلك إذا أردنا تحليل قطعة أدبية كتبت باللغة العربية لنعرف منشأها نجد أن قسما غير قليل منها — على الرغم من كتابته باللغة العربية — يتضمن ميولا معادية للعرب من قبل الشعوب التى تغلب عليها العرب ، ونجد فى غالب الأحيان أن كاتبى هذه القطع الأدبية يعبرون بوضوح عن افتخارهم بكونهم ليسوا من أصل عربى . ومن هؤلاء الكتاب شاعر أذربيجان إسماعيل بن يسار الذى تنازع مع الخليفة هشام ونفى على أثر ذلك إلى الحجاز فى بلاد العرب » إلى أن يقول أيضا : « وهنالك أيضا أدباء غير عرب استولى العرب على بلدانهم ترجموا أدبهم الخاص إلى اللغة العربية ، ليس بقصد اغناء الأدب العربى ، وإنما بقصد إعطاء العرب فكرة صحيحة عن أدبهم ، وفى نفس الوقت ليناقسوا به الأدب العربى . ومن هؤلاء عبد الله بن المقفع الذى ترجم كتاب كليلة ودمنة إلى اللغة العربية ، وقد قتله الخليفة فى بغداد لدعايته المعادية للعرب »

ومن ثم يتخلص صاحب المقال إلى النتيجة التالية ، وهى قوله : « إن ما كتبه الفارابى وابن سينا والخوارزمى والبيرونى وسواهم لا يمكن اعتباره أدبا عربيا صرفا . أما إذا أردنا أن نقول عنه إنه أدب عربى فيكون تحليلنا له والحالة هذه تحليلا ذا جانب واحد . وأ كثر خطأ من هذا أن نقول إن ما كتبه السوفييت الشرقيون باللغة العربية هو أدب عربى لمجرد أنهم كتبوه باللغة العربية — هذه اللغة الغريبة عنهم — لأنهم لم تكن لديهم لغة مكتوبة خاصة بهم . ومن هؤلاء شعوب شمالى القوقاز الذين دونوا أدبهم باللغة العربية منذ القرن السابع عشر حتى ثورة اكتوبر الكبرى فى سنة ١٩١٧ . غير أن هذا لا يعنى مطلقا أنه أدب عربى ، لأنهم منذ أن فسح المجال أمامهم ، برعاية الحكومة السوفياتية ، لتصبح لديهم لغة مكتوبة بعد الثورة ، رفضوا أن يكتبوا شيئا باللغة العربية . ومن جهة ثانية لم يكن بإمكان شعوب شمالى القوقاز اعتبار القاهرة ودمشق وبغداد وسواها من عواصم الأدب العربى عواصم حقيقية لهذا الأدب ، لأن هذه الأماكن كانت قبلا ولايات فى السلطنة العثمانية ، ومن ثم مستعمرات (هكذا) إنكليزية وفرنسية . وفضلا عن هذا فإن شمالى القوقاز كان قسما من روسيا وقد دخلت شعوبه فى نطاق الثقافة التقدمية وتأثيرها النافع ، هذه الثقافة التى ينعم بها الشعب الروسى العظيم »

شاعر مجهول

للأستاذ حسنى كنعان

لقينى بالأمس القريب صديق فاضل من أسرة الجندى الدمشقية فقال لى فيما قال :

— لقد أنكرت فضل الرجل وما عرفت له حقه . قلت :

— أى رجل تمنى . . ؟ قال :

— أعنى عميد أسرتنا وشاعر سورية المجلى « الشيخ أمين الجندى » . . إن جميع ما ذكرته من موشحات وقدود وأشعار فى فصل إسق العطاش الذى نشرته فى الرسالة الغراء منذ أمد هى من نظمه ، فقطعة يا غزالى كيف عنى أبعدوك ، وتيمتنى هيمتنى عن سواها شغلتنى ، واسق العطاش تكرماً . . هى من نظمه . .

« فالبلاشفة يعتبرون نفوسهم حراسا لمصالح الشعوب وحريتها الوطنية واستقلالها وثقافتها المادية (الاقتصادية) والروحية (العقلية) ، ويجاهدون ضد الإنقاص من قدر حرمة هذه الشعوب الوطنية وفنونها » . وقد استشهد على هذا بقول ستالين بأن الشعوب السوفياتية تعتقد بأن لكل أمة ، كبيرة كانت أم صغيرة ، مميزاتها الخاصة والتى لا توجد فى أية أمة أخرى ، وأن هذه المميزات التى تتمتع بها كل أمة تزيد فى تراث الثقافة العالمية العام وتغنيه . ولهذا فإن جميع الأمم تتساوى من هذا القبيل بعضها ببعض . فكل محاولة والحالة هذه للحط من الكرامة الوطنية لأى شعب من الشعوب ، أو لاستثمار حقوق هذه الشعوب التاريخية ، بما فى ذلك ثقافة هذه الشعوب ، يجب شجبه شجبا حاسما كما هو الحال فى الاتحاد السوفيتى . ثم يختم كلامه بقوله : « إن لقضايا الميراث الأدبى أهمية حيوية ، فيجب إذن أن لا يفسح المجال لأى سوء تفاهم من هذا القبيل . كما أنه من الضرورى أن يفهم أن الرجعيين يستخدمون قضايا كهذه فى جميع المناسبات والأمور »

شاكر الدبس

فلماذا لا تطلعنى على مقالك قبل نشره فى الرسالة ليكون بحثك كاملا من كل جهاته . . ؟ قلت :

— كيف أستطيع أن أتأكد من ذلك . . ؟ قال :

— أنا أطلعك على ديوان له مطبوع قد حوى فى طياته هذه اللطائف والرقائق . . وكنت أسمع عن هذا الشاعر الشئ الكثير ولكنى مع الأسف الشديد لم أقع على ديوانه . فألفيتها فرصة سانحة أن يعرض على أحدهم هذا العرض الذى وافق هوى فى نفسى التواقة إليه ، وذلك أملا فى أن أنصف الرجل . . مضت مدة من الزمن دون أن يفى هذا الصديق بوعده ، فذكرت ذلك لصديق آخر من أفراد هذه الأسرة وهو المحامى السيد « تاج الدين » الجندى نجل العلامة الشيخ سليم الجندى أستاذ الطنطاوى ، والأفغانى ، والجيرودى ، والعطار ، وصاحب محاضرة المعرى التى أعجبت الأستاذين الجليلين معالى طه حسين باشا وصاحب العزة أحمد أمين بك فى المهرجان الألفى للشاعر المعرى . .

فأخذنى نجل علامتنا إلى مكتبه ، ودفع إلى الديوان للاطلاع عليه . . . فعكفت على دراسته عكوف الهائم الولهان . فوجدت فيه من الدرر واللآلئ ما يصلح أن أحلى جيد هذه الصحيفة به . فالديوان يحوى قدودا وموشحات وأشعارا غزلية وصوفية كنا هائمين بها ومعجبين بقائلها قبل أن نعرف مصادرها ومواطنها . . وبقدر اطلاعنا على هذا الديوان الفذ ازددنا عجباً وإكباراً لهذا الشاعر . وها أنا ذا إظهارا للحقائق وتمشيا مع السنة التى درجت عليها من إحياء ذكرى الأعلام فى ربوعنا فى هذه الصحيفة التى فتحت صدرها لمثل هذه البحوث ، وعودتنا على طرق بابها ، دون أن توصده فى وجه من يبغى نشر فضائل بنى قومه من الأعلام المجهولين . . جئت مقدما شاعرنا المجهول المغموط الحق بهذه المقدمة الوجزة . .

الشيخ أمين الجندى شاعر مطبوع . ولد بمدينة حمص سنة ١١٨٠ ولقد جاء فى مقدمة ديوانه ما ننقله بالحرف الواحد بلغة أهل ذلك العصر . .

هو عالم زمانه وشاعر عصره ، الحسيب النسيب ، مداح المختار الحبيب ، الشيخ أمين بن خالد أغا الجندى العباسى . وبعد أن تلقى علومه فى حمص على خيرة علمائها توجه إلى دمشق وقرأ على علمائها

الأعلام وأخذ الأوزان الشعرية من الشيخ عمر اليافى ، ولما رأى فيه هذا الذكاء النادر قال له :

إذهب فأنت أشعر أهل الغرام. فصار الشعر فيه سجية والبلاغة له عطية ، يرسم القصائد الفريدة والموشحات المفيدة والمواليات العديدة، بحيث لم يكن يمضى عليه يوم يخلو فيه من نظم ونثر اهـ

إلى آخر ما هنا لك من أقوال كثيرة وردت فى المقدمة نمسك عن الاسترسال بسردها لئلا يمل القارئ وكلها على هذا النمط من مدح وثناء . والشئ المهم فى هذا الديوان أن الشاعر كان معاصراً للقائد الكبير إبراهيم باشا قائد الحملة المصرية ، وفاتح سورية ولبنان وغيرهما من البلاد العربيـة . ولقد عثرت فى الديوان على مقطوعة مدح بها هذا الفاتح المعظم بقوله له :

توق ابتسام الليث فى موقف الخطر … وخف باسمه إن غاب يوما أو حضر
وكن بطلا شهما شجاعا ولا تكن … جبانا جزوعا قاصر الباع والنظر
فإن الجبان الوغد ما بين قومه … يعيش ذليلا سىء الحال محتقر
ولسنا إذن فى دولة قيصرية … ولا أهل ملك كسروى كما اشتهر
ومن مصر مذ سرنا بأمر عزيزها … كشفنا ظلام الجور والبغى والضرر
(وبارودنا) كالبرق والرعد لم تزل … صواعقه ترمى وتحرق بالشرر
وكم حافر بئرا ليوقعنا به … نخاب وأمسى واقعا بالذى حفر
ومسعر نار للعناد وعندنا … بحار لها تطفى وتغرق من سعر
ولكننا فى عز دين مؤيد … وشرع بوحى جاء من سيد البشر
وإنا بحمد الله فى خير دولة … لوا عزها فى الخافقين قد انتشر
ومنا سيوف للمنايا تجردت … على عنق الأعداء بل أسهم القدر
وليس كإبراهيم فى موقف الوغا … هزبر أرى الأعداء حلما إذا اقتدر
همام تهاب الأسد سطوة بأسه … وترجف منه الراسيات إذا زأر
له همة فى الحرب أضحت علية … وعزم يقد الصلد والصارم الذكر
به ملة الإسلام عزت فأصبحت … متوجة بالعدل والأمن والظفر
وأزكى صلاة الله ثم سلامه … على خير مبعوث إلى الخلق من مضر
فلا زلت فى عز العزيز الذى غدا … لأهل الملا شمسا وأنت لهم قمر
مدى الدهر ما (الجندى) أنشد قائلا … توق ابتسام الليث فى موقف الخطر

فنالت هذه القصيدة حظوة فى عين القائد المصرى المتيد وقرب صاحبها إليه وجعله فى بطانته ، ولقد أفسحت هذه الحظوة المجال أمام الجندى الشاعر ، وغدا كبيرا فى أعين الدماشقة بين قومه ، وصار يقصده علية القوم وسراتهم لقضاء حاجاتهم عند الباشا الفاتح ، وأوقف شعره فى هـذه الرحلة على مديح الباشا متكسبا على غرار ما كان يفعله أبو الطيب المتنبى مع سيف الدولة. وقد غدا أتبع إليه من ظله ، يصحبه معه للدعاية فى كل قطر حل به فطمعه هذا العطف الأريحى به ، وجعل شعره فى هذه الرحلات مقتصرا على مديحه والدعاية له ، فوجد الفاتح فى هذا الداعية المطبوع على الشعـــر خير نصير له فى إظهار عظمته ، فزاد فى إكرامه وإعزازه ، وصار يصحبه فى روحاته وجيئاته ، وكان كلما قدم إلى دمشق أو رحل عنها متنقلا فى أفياء دولته المترامية الأطراف، التى أقام دعائمها على الأسلات والشفرات، رأى الجندى فى ذلك الفرص السانحة لإسماعه فيه ما يرغب ، وما يرهب به الخصوم ، ويفت فى سواعدهم من الظهور أمامهم بهذه الأماديح الخالدة بظهور الفاتح الرضى عنه التى يعبده شعبه وتفتديه رعاياه وتفديه بأرواحها ، ومما قاله فيه بعد وصوله إلى دمشق قادما من قونية وهو معه سنة ١٢٤٨ هـ وكان قد فتح عكاء ودك حصونها وقلاعها دكا : قال فى ذلك

نحن الأسود الكاسره … نحن السيوف الباتره
من أرض مصر القاهره … سرنا وقد نلنا المنى

* * *

بارودنا شراره … تشوى الوجوه ناره
وعزمنا بتاره … من العدا أمكننا

* * *

نحن بنو الحرب فلا … نخشى غبارا إن علا
ولم نعق عن البلا … صدرا إذا الموت دنا

* * *

عاداتنا أخذ الرجال … بالبيض والسمر العوالى
ونارنا بالاشتعال … لهيبها يبدى السنا

* * *

جهادنا لا ينكر … فى كل قطر يذكر

وسـيفنا إذ يشهر للنصر يبدى معلنا

° ° °

« أبو خليل » فى الحروب لا زال كشاف الكروب
وحين يدعى للركوب بالبيض يغزو والقنا

° ° °

لما غزونا عكا « بالطوب »(١) دكت دكا
والأعادى أبكى هجومنا وأخذنا

° ° °

صبحا علونا سورها وقد هدمنا دورها
أما ترى قصورها قد حلها هدم البنا

° ° °

ويوم حمص او ترى على العداة ما جرى
وقد علا فوق الثرى صرعى بقاسون الفنا

° ° °

هناك أضحوا هالكين وفى دماهم غارقين
وانحل عقد الظالمين وحل بالباغى العنا

° ° °

وحماة مع حلب سرنا وجد بنا الطلب
ولم نجد ممن هرب إلا طريحا فى ضنى

° ° °

وقد أطلنا قهرهم لما أسرنا صدرهم
ومن ولينا أمرهم بالذل مالوا نحونا

° ° °

هذا وهذا كله عزيز مصر أصله
وليس يخفى فضله دوما على أهل الثنا

° ° °

فنسأل الله المعين بحرمة الهادى الأمين
يدعـه للمسلمين مولى مغيثا محسنا

أما القصيدة الأولى فلقد نقلتها من الديوان منتخبا منها هذه الأبيات المنشورة آنفا ومطلعها : توق ابتسام الليث إلى آخر الأبيات . وأما القصيدة الثانية : نحن الأسود الكاسره فلقد أتحفنى بها العلامة الشيخ جميل الشطى مفتى الحنابلة بدمشق مذ علم أنى أعد فصلا للرسالة عن هذا الشاعر المجهول .. والقصيدة مدونة عنده منذ القديم ومنشورة فى كتاب له .. ولقد جاء فى نهاية هذه الحادثة أن الشاعر كوفئ عليها من الباشا بـ ١٠٠ ليرة عثمانية ذهبا ، وكان لها وقع عظيم لدى الباشا الممدوح. وفى الديوان قصائد كثيرة منها قصيدة يمدح بها محمد على باشا الكبير مؤسس الأسرة العلوية وباعث نهضة مصر الحديثة. نرجئ نشرها فى عدد قادم يأتى ، لأن ديوانا يحوى على ٤٥٠ صفحة لا يمكن أخذ فكرة عن صاحبه فى مقال واحد .. فإلى اللقاء يا عزيزى القارئ فى العدد القادم

دمشق

عيسى كنعان

(١) الطوب : المدفع بالتركية

أدبنا القومي

بين الفصحى والعامية

للأستاذ حسين كامل عزمي

كان من أثر احتكاك مصر بالغرب الحديث أن تغيرت قيم طائفة من مثقفيها في مناحي الحياة العلمية والعملية ، فإذا نظرنا من وجهة نظر أدبية ، رأينا أن هذا الأثر – الاحتكاك بالغرب – قد أثر كثيرا في الأدب الحديث . .

ففي الربع الأول من هذا القرن ، نشب ما يشبه المعركة بين طائفتين ، أو مدرستين ، من الأدباء .. طائفة تمثل مطامح المصريين إلى حياة أدبية قومية ، عناصرها الروح المصرية المتطورة بالاحتكاك بالغرب ، النافضة آثار الروح العربية التي مرت فيها قرونا . . وطائفة لا تزال مستمسكة بعناصر الروح العربية : لغة ، ومعنى ، وثقافة ، ومذهبا . .

وكانت الطائفة الداعية إلى التجديد يمثل فيها ما يشبه الثورة على الأدب العربي ، وما يشبه الانتصار للآداب الغربية .

فإذا عرفنا أن أصحاب الدعوة إلى التجديد في الأدب كانوا ينتصرون لاستعمال العامية ، إذا لزم الأمر ، محافظة على روح التعبير وواقعيته ، عرفنا إلى أي حد لم يتحقق أملهم ، حتى اليوم في إيجاد وتكوين الأدب القومي المنشود الذي ينسجم مع هذه الدعوة .. اللهم إلا فيما ندر اتفاقه لأديب مصري ممتاز ، كتوفيق الحكيم مثلا ، الذي تلمس المصرية الحقة القحة واضحة جلية تكاد تصيح في حيوية أسلوبه الرشيق ، وتشبيهاته البيئية الصحيحة ، التي نورد منها الآتي : « هذه الفتاة قلبها مثل دغل البوص . » تشبيه مصري

« ووقع الممدة بخطه الذي يشبه نبش الدجاج . » تشبيه منزلي مصري

زد على ذلك غزارة التشبيه عند الحكيم ، ممثلا بهذا التعبير المصري ، فالمصريون يكثرون من استعمال حرف « زي » الذي يسبق التشبيه . . كما ترى في أدب الحكيم إقبالا على استعمال الألفاظ العامية ، خاصة في حواره . .

ومن المسلم به أن لكل فنان جمهوره ، وكلما كان جمهور الفنان عديدا كلما كان لرسالته في الحياة قيمة عملية فعالة . . والفنان الحق مطالب بفهم عميق لدقائق النفس الإنسانية : خوالجها ، ومنازعها ، ونزواتها . . وهو مطالب بعد ذلك بصدق التعبير وواقعية الأداء ، بحيث يتمشى مع روح عصره . . فيخاطب الناس على قدر عقولهم وفهومهم ، وعلى قدر استعدادهم اللغوي الذي يمكنهم من استيعابه وتدبره . ثم الانتفاع بنتاجه . . واللغة اولا وأخيرا ، آلة جمهورية تستعملها الأمة كلها فيما وضعت لأجله ، ويتفاهم بها الشعب قاطبة فيما يريد ، فجمهرة كلماتها وغمرتها تتداولها ألسن الكافة ، ولا سيما الأفعال والحروف . . وكل شيء يتناوله الجمهور ويغير فيه ويبدل ، حتى يوافق ذوق المجموع ، واللغة جزء من مزاج الشعب ، فهي تختمر رويدا رويدا ، وقليلا قليلا ، كما يختمر العجين ، ولذلك كانت محاولة تعليم الناس جميعا لغة عامة (الإسبرانتو) عملا صبيانيا ؛ كما يقول صديقنا الفاضل الأستاذ عبد الفتاح بدوي . .

وليس التطعيم – الذي حدثنا عنه الأستاذ كامل السيد شاهين بالعدد ٩٤٠ من الرسالة الغراء – مما يشوه اللغة أو يحط من شأنها وقدرها ، بل كثيرا ما يزيدها رقة وعذوبة . . فبمثل هذا التطعيم المعقول المقبول يتم لنا تقريب الشقة بين الأدب والأمة ، فتختفي الهوة التي تفصل المتعلمين عن العوام شيئا فشيئا . وعلى مر الأيام تصير اللغتان اللتان نستعملهما لغة واحدة . . فإن الاختلاف اللغوي بين طبقتين في الأمة لمما يضعف القومية . .

والشعر مرآة عصر قائليه ، و « ميزة الشعر الطعم عن الشعر العام أنه عصري متواضع ، يمس الاجتماع الراقي كما يمس الاجتماع

الشعبي ، وبذلك يصور لنا ناحية يترفع عنها الشعر العام — ونحن نجني في كثير من الأحيان على التاريخ ، عندما نعتمد على الشعر العام في تصوير حياة المجتمع ، لأنه في برج عال رفيع لا ينحط إلى المستوى الشعبي .. » كما يقول الأستاذ شاهين ..

وبمناسبة مقال الأستاذ شاهين عن الشعر المطعم ، أذكر أن أحد أصدقائي من الأدباء البائسين ، أتاني ليلة عيد الأضحى ، منذ سنوات مضت ، يشكو لي ضيق ذات يده ، وحرمانه من تذوق لحوم الأضاحي .. ثم تركني ومضى .. فقلت :

— على لسانه — واصفاً شتى أحاسيسه :

تثـــير دوما شجوني رؤيا بدت لعيـــوني
رأيت في الحلم كبشاً معـذبا ذا أنين
يصيح في القوم : ماءا قبيل عصف المنون
فقلت للكبش : صبراً كل يزول ودبني !
قد جف ريقك لما رأيت هول اليقين !
وإن يجودوا بماء بل يذبحوا بسكون
وبعـــد جز الرءوس يزول نطح القرون !! »

* * *

ثم التفت لنفسي بذلـــة المستكين
فـــا أكابد دوما كمثل هذا الحزين
يسر قوما شقائي فيطربوا لأنيـــني
لمحض كوني أديبا في خســـة جدوني
ولو رأوني خروفا في قصعة .. أكلوني !
ولو رأوني سميـــنا بنشوة .. يذبحوني !!
وبعـــد فكر عميق ، وقد كواني حنيني ،
تمثلت لخيـــالي فنون أرسن لوبين
... جذبت حبل خروف والقـــوم لا يبصروني
وعنـد صخر بكوخي ربطته .. كالأمين !

* * *

لكن خلق المهى بسرعة لحـــوني
وصاح جاري صياحا سمعته كالطنين :
« أيا شويش .. الحـرامي ربيب شتى السجون !
خطف خروفي العزيز فياله من لعين !
أذقه طعم الهـــوان بفكه والجبين
وأنت شهم مغيث فلا تخيب ظنوني ! »

* * *

صحوت فورا ! . أسوغ قصيدة من عيوني .. ؟!

وقد سر الصديق بهذه القصيدة سرورا عظيما ، إذ وجد فيها — على حد تعبيره — شيئا من التنفيس عما ينهش بقلبه المسكين .. ! فتركتها بين يديه ، بعد أن لحت بريق الشكر في عينيه .. !

السويس — حسين كامل عزمي

١ – رحلة الى ديار الروم

للسيد مصطفى البكرى الصديقى

للاستاذ سامح الخالدى

كانت رحلة الشيخ البكرى هـذه إلى بلاد الروم هى الثانية فقد رحل قبلا إلى الآستانة سنة (١١٣٥ هـ) وأسماها « تفريق الهموم وتغريق الغموم فى الرحلة إلى بلاد الروم » ولـكننا لم نعثر على هذه الرحلة ضمن مجموعة رحلات الشيخ المخطوطة والمحفوظة فى خزانة الـكتب الخالدية ، والتى علق عليها الشيخ البكرى نفسه ، الحواشى عليها

وفى رأينا أن هـذه الرحلة من ألطف وأشيق رحلات البكرى ، فقد قطع فيها الشيخ مسافات شاسعة برا وبحرا ، إذ توجه إلى الآستانة عن طريق طوروس وقونية ، وعاد فى مركب إلى الإسكندرية مارا بسواحل الأناضول وجزيرة رودس

ويلاحظ أن الشيخ البكرى لم يكن يترك الفرصة تمر لنشر طريقته الخلوتية ، حيث كان ، ولهذا لم يكن يحجم عن إدخال جمهور المريدين فى طريقته سواء فى المدن أو القرى ، وسواء أكان مقيما أم مسافرا ، بل ما قولك أنه لم يتردد فى إدخال المريدين إلى طريقته وهو فى المركب فى ميناء الآستانة ؟

ولقد كان الشيخ البكرى ، ذا نفوذ عظيم ، وقد كثرت أشياعه وأتباعه ، فقـد كان له أتباع فى أكثر القرى والمدن الفلسطينية ، كما كان له مريدون فى طرابلس الشام ، وحمص ، وحماه وحلب ، وبغداد والبصرة ، ومصر ، والإسكندرية ، ودمياط ورشيد

ولم يوفق الشيخ فى دعوته فى أواسط الأناضول فقد حاول أن يستميل إليـه البعض فى مدينة (أركلة) الأناضولية التركية ولـكنه لم ينجح ، ذلك لأنهم كانوا أتباع الطريقة (الزادلية) وهى طائفة تنتسب إلى قاضى زاده أجل علماء الروم ممن كانوا يقولون بهدم قبور الأولياء ومقاومة التصوف ، وقد جرب الشيخ إفهامهم ففشل ويئس منهم وقال إنه ليس ثمة من فائدة لمباحثة أمثال أولئك

ولقد كان الشيخ حريصا على أن يسير فى موكب حافل حيث ذهب وحيث حل ، ولذا نراه فى هذه الرحلة بدلا من أن يسلك الطريق السلطانى من القدس إلى الشام عن طريق نابلس ، فجنين ، فخان التجار فجسر بنـات يعقوب فالقنيطرة فدمشق ، يسلك طريقا فى داخلية البلاد ، فينضم إليه الحاج حسن بن مقلد الجيوسى شيـخ بنى صعب والشيخ أحمد الباقانى والحاج سلامة الدامينى ، والحاج حسن الجاعيلى والحاج محمد الـكفرعيني من شيوخ جبلى نابلس والقدس

ويصف الشيخ لنا الطريق ، ويعجب من عمران منطقة النصيرية وكثرة زيتونها ، وخراب سور أنطاكية ، ويذكر وعورة الطريق من أنطاكية إلى أدنه فقونية ، وشدة برد الأناضول فى الصيف

وينزل الشيخ فى مدرسة شمسى باشا فى الآستانة ، ولشمسى باشا هذا الذى كان حاكما للشام ، مدرسة باسمه فى دمشق ، ويتقبل دعوة ابن عمه السيد محمد خليل البكرى وكان شيخا (أى رئيسا) لمدرسة حسن باشا المقتول فى الآستانة (قتل ١٠٠٦ هـ)

ومن العجب حقا أن يكون الشيخ فى سفرته هذه وفى غيرها دائم الاتصال بإخوانه ومريديه ، فتراه يحرر لهم الـكتب ويرسل لهم القصائد من كل مكان ، كما يتلقى منهم الأجوبة على كتبه وكلها تصف شوقهم إلى لقاء الشيخ والاجتماع به

فمن ذلك أن سليمان باشا العظم والى الشام عتب على الشيخ عدم مكاتبته له من الآستانة ، فبعث الشيخ يعتذر لجناب الوالى ويذكر أنه أرسل له سلاما خاصا عن طريق كتاب بعث به إلى صديقه الحاج حسن جلبى بن مكى الغزى ، وقد كان فى معية

(١) مخطوط فى المكتبة الخالدية فى القدس . ولد الشيخ البكرى سنة (١٠٩٩ هـ – ١٦٨٧ م) وتوفى سنة (١١٦٢ هـ – ١٧٤٨ م)

الباشا ، ثم يقول له إن المانع من مكاتبته هو مراعاة مقام الباشا الخطير !

وبما يلفت النظر أن الحاج خليل بن كشيش شيخ مقاطعة الرجيل في العراق ، وقد كان آنذاك في الآستانة اندرج في سلك المتصوفين وأصبح من أعوان الشيخ ، وكان الحاج خليل هذا قد اجتمع بالشيخ البكري يوم زار العراق

وكان من عادة الشيخ أن لا يتحرك في سفر ، قبل أن يستخير الله ، فإذا ماظهرت الإشارة منبئة بالسفر فعل ذلك ، على اعتبار أن إرادة الإنسان الضعيف في الرحلة والسفر ، مرتبطة بإرادة الله ، وأن ذوي الكشف الرباني ينتظرون ظهور مثل تلك الإشارة قبل التحرك من مكانهم

ومع أن الطريق البري استغرق من ٢ ربيع الأول إلى حوالي منتصف جمادى الأولى للوصول من دمشق إلى الآستانة فإن الرحلة البحرية في المركب لم تستنفد أكثر من أربعة عشر يوما إذ ترك ميناء (بشك طاش) في الآستانة في السابع من رجب ووصل الإسكندرية في ٢١ منه

وعجيب حقا ما كان يبديه الشيخ من النشاط في بث دعوته ، فهو كالحركة الدائمة لا يهدأ في نشرها بين كبار الحكام ، وشيوخ الأقطاع ، وطبقة التجار ، بل وطلاب الأزهر المجاورين من صغار الشبان !

ويصف لنا الشيخ سوء معاملة رجال المكس في الإسكندرية ويشكو مر الشكوى منهم ، ومن الغريب أن ينطبق هذا على ما وصفه لنا ابن جبير في رحلته عن (جمرك) الإسكندرية في القرن السادس الهجري !

ولم يهدأ الشيخ في نشر دعوته في الإسكندرية ورشيد والقاهرة ، وهو يصف لنا أشهر مشاهد هذه المدن المصرية ، ويذكر لنا من اجتمع إليهم من كبار مشايخ عصره ، وقد أخذ البعض منهم عنه الطريق كالشيخ الحفناوي

ويلاحظ أن الشيخ انتهز عودة الوزير المشير عثمان باشا فانضم إلى القافلة العائدة من مصر إلى فلسطين

ويذكر الشيخ بألم ظاهر ضعف الحكام ، وعدم حزمهم للضرب على أيدي قطاع الطرق في هذا الطريق المالي ، ويعجب من ضعفهم ، ومما لا ريب فيه أن القوافل كانت تتعرض لتعدي العربان وأذاهم، وقد كان الشيخ يفقد بعض كتبه في هذه الغارات مما كان يؤله ويحز في نفسه

ويصف لنا الشيخ حسن استقباله في غزة ، ويذكر خراب جامع هذه المدينة ، كما ينزل ضيفاً على آل الخيري ، ومنهم مفتي الرملة ، وقد كان من مريدي الشيخ وأتباع طريقته

ولا ريب أن الشيخ البكري ، القطب المتصوف ، إنما كان يرحل هذه الرحلات لنشر طريقته وإكثار مريديه ، وإذا كان أسلوبه ، وتفكيره وجل همه موجها إلى هذه الناحية ، فإنه لا مراء قد ترك لنا ثروة زاخرة بالمعلومات والآثار مما يلقي ضوءا على حالة البلاد ومشاهدها ، ورجالها وحكامها ، والأمن العام فيها في القرن الثاني عشر الهجري

وقد يقال إنه لم يصف لنا وصفا موضوعيا ما شاهده من المدن والقرى والمعاهد ، ولم يفصل حيث أوجز ، ولكن لو لم يكن الشيخ متصوفا لما قام بهذه الرحلات ، ولكنا حرمنا من هذه المعلومات القيمة ، ولكانت معرفتنا لهذا القرن المتأخر ضئيلة زهيدة

ولنترك الشيخ البكري الآن يصف لنا رحلته الرومية الثانية :

مقدمة الرحلة :

يقول الشيخ : « وبعد قد أيقظ الحق جل وعلا وتبارك وتعالى ، لحظ فؤاد ملاحظ في حبه يتغالى ، وكان جال في ميدان الغفلة مجالا يسرح في أكنافه ويحوم ، فحرك منه الساكن والجزء الراكن ، لهذه الأماكن ، ودعاه قلباه إلى ديار الروم (أي الترك) وهناك اشتد محلول العزم ، وامتد قصير الحزم ، واعتد القلب بعدة الجزم ، لما آن للمقعد أن يقوم ، وذلك في أوائل عام (١١٤٨ هـ) ـ (١٧٣٥ م) ، ما كرف عبير عنبر خيشوم »

وكان الشيخ قد رحل إليها سنة (١١٣٥ هـ ـ ١٧٢٢ م) ودون ذلك في كتاب موسوم « بتفريق الهموم وتغريق الغموم. في الرحلة إلى بلاد الروم (٢) وأنشأ في هذه الخطرة رسالة سماها

(٢) لم نعثر على هذه الرحلة بين مجموعة رحلات البكري

(العرائس القدسية . الفصحة عن الدسائس النفسية) وكان الواسطة فى كتابتها العلم الفرد السيد محمد التافلاتى (مفتى الديار القدسية)

ولما فارق بلاد الروم توجه إلى جهة العراق ودون رحلته إليها فى ما سماه (كشط الصدا وغسل ألوان . فى زيارة العراق وما والاها من البلدان) ووصل البصرة وعاد فأقام فى حلب نصف عام ، وتوجه منها إلى دمشق وأقام فيها بعض أيام ، ثم قصد زيارة القدس عن طريق جبل لبنان وكتب رحلته (أردان حلة الإحسان . فى الرحلة إلى جبل لبنان)

وفى سنة (١١٤٥ هـ) توجه إلى الحج وكتب رحلته (الحلة الرضوانية الإجازية الدانية . فى الرحلة الإحسانية الحجازية الثانية) وأما رحلته الأولى للحجاز فأسماها (الحلة الحقيقية لا المجازية . فى الرحلة الحجازية)

ولما عزم على التوجه إلى البلاد الرومية ، كتب كتابا إلى السيد محمد نجل السيد أحمد ، وقصد فى هذه الأثناء فى عشر المحرم التوجه إلى الزيارة الخليلية كعادته ومنها إلى نابلس فدمشق فديار الروم ، وقد أسمى هذه الرحلة (النحلة الفانية بها وسوم الهموم والغموم . فى الرحلة الثانية القدوم لديار الروم)

قال الشيخ : « لما كان يوم الاثنين الرابع عشر من محرم الحرام عام (١١٤٨ هـ) توجه كبير الآثام كبير الإجرام بعد ما ودعنا أولاداً أكباداً وخلاناً ، وكان هم فرقة الأولاد عم جوانب الفؤاد ، وخرج للوداع جم غفير من إخوان وأحباب ، وودعناهم عند سعد وسعيد (٣) وكان منهم البنية السعيدة والولد السعيد ، (علما ومحمد كمال الدين) وقصدت تسلية أحزان بزيارة (نبى الله شمويل) . ورافقنا إلى زيارته الأخ الشيخ أحمد الميقاتى (٤) وغيره من الأصحاب ، وأقمنا معهم فى (بتيونيا) إلى أن صلينا الظهر جماعة وودعناه ومن معه من رفاق ، وسرنا والدموع لما وقع على الخدود الماعة ، وبتنا فى قرية (عابود) ودعانا فى الصباح الأخ على بن بدير إلى (دير غسان) فلم نجبه إلى المقصود لنفرة قلب من أهلها ، فقال نجمل الدعوة إلى (شوفا) فأجبته ولم نبت إلا لدى الأخ الشيخ رضوان الزاوى وأقمنا الليلة الثانية لديه ، وطرنا إلى

(٣) اسم حى من أحياء القدس ، يقع إلى شمال المدينة

(٤) أو الموقت . عائلة مقدسية كان عليها أن تحسب ميقات الصلاة فى المسجد الأقصى

(صنير) ومنها إلى (الخربة) بقصد أبى الحسن والإقبال عليه ، ثم قرأنا له ولجيرانه الربعة وأهديناها إليه ، ومنها أتينا المائين وثبنا (جاعين) ، ولما أشرفت على علم الهدا ، قبل الوصول إليها التمست منه الندا ، وكتبت على ظهر الدابة ما أمليه من أبيات :

علم الهدى أهدى لنا الأرواحا ... فأراح أشباحا بلى أرواحا

وتوجهت ثانى يوم إلى نابلس المحروسة ، التى غياضها ورياضها عروسة ، وأقمنا بها ثلاثة أيام ، وأخذ بها المعهود جمع أحبة ، ثم بتنا فى (كفر قدوم) بانشراح ينفى الهموم ، وثبنا أول النهار بحظ « وبسط وسرور » ورافقنا الأخ الحاج حسن بن مقلد (الجيوسى) ، إلى قرية (كفر زيباد) وبتنا بها وأتينا (كفر جمال) ، وبتنا (الطيبة) بأنس وجمال ، وتغدينا فى قرية (ارتاح) وودعنا الحاج زين محب بترك الحظ ارتاح ، وبتنا فى (شويكة) وتغدينا فى (عثيل) وبتنا فى (زيتا) وأخذ بها المعهد الأصيل جماعة ، وممن صحبنا إلى الشام الأخ القديم المعهد ، الشيخ أحمد الباقانى (نسبة إلى قرية باقا)

وقد ارتاح الأصحاب فى المراح وزماربن (٥) وبتنا فى (صرفند) (٦) واصطحبنا فى عتليت وهى قلعة عجيبة البناء ، اعتنى فيها بانيها كل الاعتنا ، وزرت مقام الخضر عليه السلام ، وصليت الظهر فى قرية غب الإكرام ، وبتنا فى (الفسار) لدى أولاد الشيخ سهل رفيع المنار ، وبعد صلاة العصر توجهنا إلى (كفورتا) ومضينا إلى (البروة) وأضافنا بها الشيخ على بن الكيال ، وصلينا العصر فى قرية (عمقا) عند محب له حسن لقا ، وجاءنا محمد سعيد نجل المرحوم الأخ السيد محمد السلفيتى ، وتوجهنا منها إلى موطن الشيخ حسين وبتنا لديه فى (جدين) وكنا فى السير مجدين ، وصلينا العصر فى (ترشيحا) المريحة من الأتعاب والمليحة الفيحا ، وأقمنا فيها إلى ظهر اليوم الثانى بعد ما دعانا المحب الفانى الشيخ أحمد نجل الشيخ حسين وقد بذل الطاقة فى الإكرام ، وبتنا عند (قلعة) محمد نافع ، وحين أتيت فى الصباح (القاسى) جاءنا من أولاد مراد ، حسن وخالد ، وصحبتهم الأخ الشيخ محمد بن المرحوم الشيخ عبد الهادى الصفدى

للكلام بقية

سامح الخالدى

(٥) هى مستعمرة زكرون يعقوب الآن

(٦) جنوب عتليت وهى غير صرفند قرب الرملة

قانصوه الغورى

سلطان مصر الشهيد

للأستاذ محمود رزق سليم

الفصل الرابع

أقوال وأحاديث

الشاعر : يا مولانا الشيخ ! ليس فى هذا الحديث غيبة ، وإنما هو نقد مباح ومبادلة رأى . وإذا أصررت على أن فيه غيبة ، فلا حيلة لنا فى إصرارك ! وكيف يستطيع قوم يرون الأحداث من حولهم تترى ، وتمتلئ صدورهم بالحنق عليها، وتفيض أذهانهم بضروب الرأى فيها ، ثم لا يتكلمون ؟ وفى جلسة متوارية متواضعة كجلستنا ؟ اللهم إن هذه هى الغفلة الكاملة ، فإذا ارتضيتها لنفسك ، فنرجو الله أن يعافينا منها

ولى الدين : أيها الشويعر المتعالم ! هل النقد لا يتناول إلا العيوب فينشرها ، والنقائص فيذكرها، أوليس للناس حسنات تستحق منكم الثناء والاقتداء ؟

الشاعر : أنى لنا ذكر الحسنات ، وقد طغت عليها السيئات؟ إن هؤلاء الجراكسة قد ملأوا فجاج هذا الوادى فسادا ، وأصبحوا كالخمر ضررها أكبر من نفعها

انظروا . . لقد بلغنى منذ أمد قريب أن أحد رعاع المماليك الجلبان نزل إلى سوق الرقيق لبعض شأنه ، فاختلف مع الدلال لأمر من الأمور ، فاستمر بينهما الجدال ، وعلا الضجيج ، فما كان من المملوك إلا أن هوى على رأس التاجر بقبقاب ... فوقع على الأرض مترديا ، وحمل إلى بيته لا حراك به ، ثم مات بعد زمن قريب ... فماذا جرى لهذا المملوك ؟ لم تنتطح فى حادثته شاتان !

ثم ... أتعرفون الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين . . ؟ لقد ضرب أحد النوتية ضربا مبرحا حتى مات بين يديه . . ثم : ! علم السلطان بحادثته ، فتغافل عنه ، مراعاة للأمير أرزمك ، وقيل إنه أوعز إليه بأن يرضى أبناء قتيله بشئ من المال

التاجر : لقد سلط الله بعض هذه الطائفة على بعض،ليأخذهم بظلمهم ، وفداحة ضرائبهم على الرعية ، وسرفهم فى الأموال ، وسفههم

الستوفى : لعلكم تعرفون أن الأتابكى قيت ، كان يأمر بالسلطنة ، ويتطلع إلى منصبها . فكان يراسل الأمراء الطامعين لينضموا إلى صفوفه أمثال سيباى نائب حلب ، ودولات باى نائب طرابلس ، ذلك الذى فر مرة إلى ملك العثمانيين ، ليحرضه على سلطنة مصر وممتلكاتها . . وبذلك أفسد الأتابكى قيت عددا غير قليل من الأمراء . وكادت مؤامراته تنجح ، لولا أن عيون الغورى يقظى ... فدهمه وعاجله بالقبض عليه ، وواجهه بأدلة قاطعة ، على إدانته ، فلم يستطع دحضها .. وهكذا أدى به مطاف أطماعه إلى سجن الإسكندرية ينتظر فى ظلماته مصيره المحتوم . . ثم أقام السلطان مكانه فى الأتابكية عدوه اللدود الأمير قرقماس

الشيخ ولى الدين : كفى كفى . ! ألم يعد يحلو لكم ، ولا يلذ لألسنتكم ، ولا تتناقلون فى سمركم إلا أخبار الغدر وذكريات الانثار . . ولا تلمسون للناس حسنة تذكرونهم بها ، ولا بدا تشكرونهم عليها ؟ ألا كم لسلطاننا الغورى من حسنات . . وكم له من أيادى بيضاء

الشاعر : « فاغرأفاه » : ألا يتفضل مولانا الشيخ بذكر حسنة من حسناته أو يدا من أياديه ؟

الشيخ ولى الدين : ألم يأمر بجميع فقراء القاهرة فى يوم عاشوراء ؟ فاجتمعوا عند سلم المدرج ، ثم نزل إليهم بنفسه ، وهو يمتطى فرسه ، وفرق عليهم الدنانير بيده ؟ لقد قيل إنه أعطى كل فقير منهم دينارا أشرفيا من الذهب

الشاعر : نعم ! نذكر ذلك ولا ننساه . . كما نذكر أيضاً أن ثلاثة من هؤلاء المساكين قد قتلوا فى أثناء ذلك !

الشيخ : اتق الله ياشهاب الدين ، ولا تلبس الحق ثوب الباطل . فقد قتلهم الزحام ، ولم يقتلهم السلطان

الشاعر : ولهذا ، صمم السلطان على عدم النزول إلى الفقراء مرة أخرى ... حتى يئسوا من بره . . وحتى قال قائلهم :

سل الله ربك من فضله إذا عرضت حاجة مقلقه
ولا تسأل الترك في حاجة فأعينهم أعين ضيقه ...

الشيخ : إن السلطان لكثير البر ، وهو لا يفتأ يحسن إلى الفقراء ، وقد أمر في أول رمضان أن تحمل إلى القلعة رءوس الضأن وأوعية الدقيق والخبز والسكر ، وأن تعرض في ميدان القلعة على أنظاره ، كما جرت العادة بذلك ، بعد أن تزف في شوارع القاهرة على رءوس الأشهاد وإعلاناً للناس بها ، وحولها المحتسب ووكيل بيت المال . . ثم وزعت على الفقراء وأهدى منها إلى الأصدقاء .

الشاعر : ألا قاتل الله حب الظهور ! فهو يكلف المرء ما لا يطيق ، وإذا كانت للسلطان نفس برة ويد رحيمة محسنة ، فلماذا قطع منذ أمد « جوامك » (رواتب) كثير من الأيتام والنساء والصبية المستحقين ، الذين تعودوا أن يستعينوا بها ، ورتبها لهم الملوك السابقون . ؟

الشيخ : يالك من خبيث ماكر ، لا تنفق عنده يد ، ولا تصلح لديه معذرة ! لقد كانت خزائن السلطان أول أمره خاوية ، وكان في حاجة قصوى إلى المال . فكان لابد له من الاقتصاد في الإنفاق . فلما امتلأت يده وأخصبت خزائنه أعاد سيرة المحسنين من الملوك ، وعهد البررة من السلاطين .

ومع ذلك ! ألم يأمر بإبطال النادبات النائحات في المآتم ، والذين يدقون الدفوف خلف الموتى ... ألا تذكر حينما تفشى الوباء في القاهرة ، وفتك بالناس فتكه الذريع ، كيف قام القاهريون يندبون موتاهم ، وامتلأت حارات المدينة وأزقتها نواحاً وعويلا كأنما اشتعلت النيران في ربوعها

ألم يأمر السلطان بتحريم شرب الخمر وكسر جرارها ومصادرتها في بيوتها وضبط بائعيها والضرب على يد تجارها ، وأمر بكبس بيوت الحشيشة وإحراقها ، وإقفال دور « البوزة » وإراقتها ماذا تريد يا شهاب الدين أن يفعل السلاطين ؟ لعل في إراقة الخمر وكبس الحشيشة ما يؤلمك ويضنيك ؟ ولهذا فأنت ساخط

الشاعر : إنه لا يؤلمني ذلك ولا يضنيني إلا بمقدار ما آلم وأضنى سلفنا الزجال الشاعر الأديب إبراهيم المعمار ... فقد قيل إن سلطان عصره الملك الأشرف شعبان بن حسين ، حفيد قلاوون ، حرم الخمر والحشيشة وأهدر كرامتهما . . فقال المعمار في ذلك هذه المواليا الفكاهية :

يامن على الخمر أنكر غاية السكران
لا تمنع القس يملا الدن والمطران
وأمر ببلع الحشيشة تكتسب أجران
وتغتنم دعوة المعطول والسكران

الشيخ : قاتله الله ! وقبحه من شاعر زجال . . ! هكذا أنتم يا معشر المتشاعرين . . ! لا يلذ لكم مقام إلا بين بؤرة وبيئة ، وكأس مليئة . ومن شاء منكم الشهرة ، فليس أمامه من سبيل إليها إلا أن يمجن كما يشاء ، أو يهجو أحد العظماء

قل لي يا خليفة المعمار . ! لماذا رسم السلطان للأمراء بالغاء نقبائهم الذين كان أرباب المظالم يفدون عليهم للفصل في مظالمهم ؟ ورسم أن أحداً لا يشكو ، ولا يرفع قصة — قضية — إلا عن طريق قضاة الشرع ؟ أليس في ذلك حماية للناس ورعاية لهم من جشع الأمراء والنقباء ، وجورهم . . أو ليس في ذلك دعوة إلى أن تسود العدالة ، وترعى أحكام الشرع الشريف

الشاعر : هذا حسن ! وقد رسم السلطان بذلك كله ، حينما راعه أن الوباء استحر في الناس ، وأعمل فيهم سيف فتكه وسفكه . فرأى أن يتقرب إلى الله بتلك القربى ، لعل الله يخفف بها الكرب عن المكروبين ... ولكن لولا الوباء لما اتجهت فطنة السلطان إلى هذه المكرمة .. وعما قريب سترى أن الأمر عاد إلى ما كان عليه

فقال علم الدين الخياط : إنني أود من الأعماق أن يفيء الناس إلى أحكام الدين ، ويرعوا العدالة ، ويوكل أمر القضاء إلى قضاة الشرع دون سواهم . وأعجب كيف دخل حاجب الحجاب ، وغيره من الأمراء ، إلى باب القضاء ، وأصبحوا من الحاكمين بين الناس في مظالمهم وخصوماتهم . إنهم كثيرا ما يجنحون إلى الهوى ، ويحكمون الغرض ، ويتذرعون بمناصبهم لابتزاز أموال الناس بالباطل ... فإذا وقف السلطان حاجزا حصينا دون غاياتهم الجائرة وعبثهم الظالم ، فوقفته تلك ، يد بيضاء مشكورة . . .

الشيخ : أجل ! أيها الأصدقاء ! تلك يد بيضاء مشكورة ، وكم للسلطان من أيادى ، وكم أحيا من عادات وتقاليد شعبية ، عفاها الزمان ودرست معالمها منذ أمد طويل . .

إليكم مثلا دوران المحمل فى رجب ، ولعب الرماحة فى حفلة دورانه .. تلك عادة جميلة دارسة . وتقليد بائد محبوب لم تنعم به عيون القاهريين منذ سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة هجرية ، أيام حكم الملك الظاهر خشقدم . لقد كان لهم فى تلك العادة متعة وترويح ، وللقاهرة عندها زينة وتبرج

وها نحن أولاء نرى سلطاننا الغورى يأمر بتدريب الرماحة من جديد ، وبدوران المحمل فى رجب . ورجعت هذه العادة بذلك تقليدا جديدا من تقاليد بلادنا ...

أنسيتم فى سنة تسع وتسعمائة هجرية ، ليلة أن بات الغورى بالقصر ، وأحرقت إحراقة النفط بالرملة ... وفى الصباح .. جلس السلطان فى شرف مطل على الرملة ، وتقدم إليه الرماحة فى ثيابهم الحريرية الحمراء ، ومعهم رماحهم مشروعة فى أيمانهم ... لقد قاموا بألعابهم البهلوانية الجميلة الخلابة ، ثم طيف بالكسوة الشريفة والمحمل مرة فى بكرة النهار ، ومرة بعد الظهر ، واجتمع الناس للتفرج به ، من كل حدب وصوب ، وافدين من القاهرة والخانكاة وبلبيس ومن نواحى شتى . حينذاك كنتم ترون الفرح يغشى بأمواجه المتدافقة جموع الناس . تلك الجموع المتراصة المتضاحكة . وقد ألقى كل امرئ منهم همه جانبا ، وأراح كاهله من عبء أتراحه ، ونسى كل أثقال الحياة إلا هذه الفرصة الماثلة .. والناس ما بين حدث يافع ، وغلامة ناهد مخدرة ، ونصف عوان مختمرة ، وعجوز فانية مودعة . وبين شاب شارخ لدن ، وشيخ هم متداعى الأوصال ، وبين سيد قوم ، وشجاع همام صنديد ، وجبان نكس رعديد ...

لقد سرت حينذاك بين الجميع نشوة واحدة ، وانتظمتهم سكرة فرح مشتركة ، حتى أخذوا يرقصون وينشدون قائلين :

بيع اللحاف والطراحه حتى أرى دى الرماحه
بيع لى لحاف ذى المخمل حتى أرى شكل المحمل

الشاعر : لله درك ياولى الدين ! لقد أذكيت فى نفسى عوامل الشعر ، وأوقدت الشاعرية ، وأشعلت فى خاطرى جذوة القريض بهذه الأوصاف والمواقف العاطفية ... وهكذا نحن معشر الشعراء ..! نراع بكل مظهر من مظاهر العاطفية ، فردية كانت أم جماعية .. ويطوح بنا الخيال حينذاك فى ميادينه الواسعة . وسنانه الحالمة .. فنعيش لحظات كالمحمومين ...

أما أنت وأمثالك يامعشر الفقهاء ..! فلكم من هذه المظاهر ما فيها من طعام وشراب ، مما لذ وطاب . . . ولله در الفاطميين الذين ابتدعوا لنا ولأسلافنا أمثال هذه المواسم ، ليشغلوا أذهاننا وبطوننا عن سياستهم الخرقاء ، وعن تقصيها ونقدها ... وليبهروا أنظار العامة منا بمباهج لا طائل تحتها ، ولا غنية فيها . . ولله كذلك السلطان الملك الظاهر بيبرس ، أول من أمر بخروج المحمل ..!

يامولانا الشيخ ! أنا لا أهتم بهذه الخزعبلات والترهات ، ولا أنظر إليها نظرة الحلال أو المحرم ، ولكنى أهتم كل الاهتمام بما حول بلادنا من الأعداء ، وما بين جدرانها من الجبناء . . أتستطيع أن تذكر لى ماذا صنع الغورى لحماية الممتلكات المصرية ؟

المستوفى : الذى أعلمه أن السلطان حريص كل الحرص على هذه الممتلكات جاد فى الضرب على أيدى العابثين بها . حذر على بقاء نفوذه فى الأصقاع النائية

لقد أشخص إلى الأقطار الحجازية تجريدة لتأديب العرب الخارجين عليه فيها . كما بعث حملة قوية إلى شواطئ بلاد الهند للقضاء على عبث الفرنجة هناك بسواحل الممتلكات المصرية ، وعلى سلبهم أموال التجار . . وربما كان لسفر تغرى بردى الترجمان إلى بلاد الفرنجة للقاء بطركهم ، صلة بذلك . ولعل السلطان يهدد هذا البطرك بالقضاء على النصارى ببلادنا ، إن لم يدفع كيد أتباعه عن سواحلنا ومتاجرنا ..

الشاعر : هناك دولة بنى عثمان .. دولة بنى عثمان . . . ! لقد كان بينها وبين سلاطين مصر السابقين مناوشات ومحارب . وقد قوى اليوم أمرها ، واشتدت مرتها ، وفتل ساعدها . ولا أدرى ماذا تخبئه الأقدار فى جعبتها لبلادنا العزيزة ، على يد هذه الدولة الماكرة الخبيثة . . .

الشيخ ولى الدين : مهما يكن من شئ ، فهم مسلمون ، والجراكسة مسلمون .. والله يولى من المبلمين علينا من يصلح ..

الشاعر : هـذه يا مولانا الشيخ ! نغمة الذلة ووحي الضعف والاستسلام . ألا تحفظ قول الله سبحانه وتعالى : « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون » صدق الله العظيم

* * *

إلى هنا سمع صوت المسحر ، وأخذ يدق طبله ويردد أناشيده وقد أوقدت المصابيح إشعارا بدخول وقت السحور . وارتفع أذان المؤذن ينادي للسحور ، ويقول : « إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا »

فأفاق القوم من جدلهم وتنحنح الشيخ ولي الدين ، وحوقل . . ثم قال باسما : « أتحبون أن ننفض ؟ . أو نتناول بلغة هنا . . . ؟ والتفصيل على صاحبنا علم الدين . . ؟

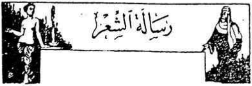
فقال علم الدين الخياط ضاحكا : لقد نزلت على رأيك يا مولانا قبل أن تفصح به ، وأعددت لك المدة لنتناول جميعاً سحورنا هنا ، ثم نصلي الفجر بإمامتك في مسجد السلطان

فأخذ القوم يلهجون بالثناء الطيب عليه

(للقصة بقية)

محمود رزق سليم

الأستاذ المساعد بكلية اللغة العربية



النور الحائر

للشاعر الشاب محمد مفتاح الفيتوري

في ليلة من ليالي التي احترقت ... فيها الحياة . . وغام الناي بالنغم
مددت كفي نحو الله مبتهلا ... والنار ملء دمي . . واليأس ملء فمي :
يارب . . يارب هذا الكون أجمعه ... الخير والشر . . والأنوار والظلم
يا أيها الأزل المحجوب بالقدم ... يا أيها الأبد المستور بالعدم . .
يا أيها القدر العالي الذي سمدت ... به الطغاة . . وشالت كفة القيم
إني شـقي بأحلامي . . بفلسفتي ... بفطرتي . . بخيالي الجامح النهم
إني غريب . . غريب عن عوالمهم ... وغربة الروح تنسى قربة الرحم
إني على الأرض عيسى في تعاسته ... ضحية الكافرين : الحقد والصمم
فامدد يد القوة العلياء ترفعني ... إلى سمواتك القدسية العصم
حتى يراجع هذا النور منبعه ... إني ابن شمسك لا ابن الطين والعدم
فأشرقت فوق وجهي صفحة كتبت ... بأحرف النور روحانية الكلم
لثمتها لثمة الإيمان مرتعشا ... ورحت أقرأ فيها حكمة الحكم
« إن السموات لا تعطى حقائقها ... إلا لكل نبي غير متهم . . ! »

محمد مفتاح الفيتوري

المنظار المسروق

للأستاذ عبد المعطي حجازي

تنكر في غدره واستتر ... وراح ورائي يقفو الأثر
وفي زحمة العيد مال الغبي ... علي وظل يطيل النظر
وأحسن بي الظن من جهله ... فخال بأني كنز العمر
لقد سرق النذل نظارتي ... وعاد قريرا بهذا الظفر
ولو علم الخائب العبقري ... حقيقة مغنمه لانتحر
فليس بها من نفيس يباع ... إذا ما رجا طامع وانتظر
وفي السوق لا تشترى بالفلوس ، ولو جن بائعها أو كفر

* * *

ولكنها لي شمس النهار ... وعطر الزهور ونور القمر
غذائي إما أضر الطوى ... وربي إما اللهيب استعر
ومؤنستي إذ يعز الأنيس ... وراويتي حين يحلو السمر
ومشكاة ليلي إذا ما دجا ... ومرمى أماني وقت الخطر
أجوز بها كل عات عصي ... وأغزو بها كل صعب عسر
وأمشي بها في ظلام السطور ... فيسعفني نورها المدخر
وأعلو إلى وكنات النسور ... وأهوى إلى مستقر الدرر

تعقيبات

للأستاذ أنور المعداوى

المسئولون عن موت الأدب :

هل الأدب قد مات ؟ سؤال جعله صديقنا الأستاذ سيد قطب عنوانا لمقاله الذى ظهر فى العدد (٩٣٩) من الرسالة ، أما الجواب الذى يحمل وجهة نظره فقد بدأه بهذه الكلمات : « يقول لك الكثيرون : أن نعم ! ويمصمصون شفاههم أسفا وحسرة ، وهم يمدون لك شواهد الموت ! ، ويصفون لك أعراض الوفاة ، ويترحمون على الأيام القريبة التى كان للأدب فيها صولة وجولة ، يوم أن كان حياة فى ذاته ، وكان مبعث حياة !

وما أريد أن أدفع عن الأدب تهمة الموت ، فقد تكون حقيقة ؛ ولكنى أريد أن أبحث عن القتلة ! القتلة الذين فعلوا هذه الفعلة ، والذين هم ماضون فيها للقضاء على الأنفاس الأخيرة التى تتردد فى تلك الجثة المسجاة ! إنهم فى نظرى ثلاثة :

الأدباء أنفسهم بمعرفتهم الشخصية وعلى عهدتهم !

والمدرسة المصرية بمعرفة وزارة المعارف العمومية !

والدولة كلها بمعرفة وزارة المالية ووزارة المواصلات !

هؤلاء هم المتهمون الثلاثة الذين خنقوا ذلك الأدب المسكين ، حتى سقط جثة هامدة ، والذين لا يزالون يخنقونه ليلفظ الأنفاس الأخيرة التى ما تزال تتردد فى خفوت ! فكيف كان ذلك ؟

فأما الأدباء فهم الذين انصرفوا كلهم أو معظمهم عن الإخلاص للأدب وللعمل الأدبى ؛ لأن هذا الإخلاص يكلف جهدا ومشقة ، ويكلف عزوفا عن شئ من الكسب المادى وعن فرقعة الشهرة الكاذبة . . إنه يكلف صبرا على التجويد ، وجهدا فى الإخراج ، ومعظم الأدباء — وبخاصة الذين كانوا يسمون الكبار — قد جرفتهم الحرب وما كان فى إبانها من رواج فى النشر ، فأنهالوا على السوق بإنتاج سريع « مسلوق » لأن هذا الإنتاج السريع يحقق لهم أرباحا عادية عاجلة ، ويعفيهم من جهد البحث وأمانة العمل ، ويضخم فى الوقت ذاته قائمة مطبوعاتهم فى نظر الجماهير !

وقد أقبلت الجماهير عليهم فى أول الأمر . . ولكنهم شيئا فشيئا جعلوا يكررون أنفسهم ، بل يهبطون عن مستواهم . إنهم راحوا يجترون ما اختزنوه ، ولا يضيفون إليه شيئا ، ولا يضيفون للحياة الأدبية ولا للحياة الإنسانية جديدا

وكان الكثيرون من أدباء الصف الثانى قد أخذوا ببريق الشهرة التى ينالها المشهورون المكثرون ، فركضوا كذلك فى

وأعبر فى محجريها الزمان وأطوى على كاهليها العصر
وأنظر فى معجزات الوجود وأقرأ فى صفحات القدر
وفى كل فن ، ومن كل روض أطوف وأجنى شهى الثمر

* * *

نجمت بها فطوانى الظلام وران على الدجى واعتكر
وأصبحت ألمح خال السطور كأطلال بيت هوى واندثر
وترقص فى عينى الكلمات كارقص الغصن وقت السحر
وأعثر فى هضبات الحروف كأعرج يظلع فوق الحجر
وكنت رفيق المنى والكتاب فصرت رفيق الأسى والضجر
وما لذة العيش فى روضة إذا أنت لم تر حسن الزهر

* * *

ففى ذمة الله نظارتى ذهبت شهيدة غدر البشر
وغفلة لص قليل الحياء رخيص الذكاء قصير النظر
ويا أيها اللص ما من أديب ثوى القرش فى جيبه واستقر
ولكنه كخيالاته يجيئ ويمضى كلمح البصر
فخل وأسرق الناس حتى الحفاة وخذ إن لقيت الأديب الحذر
ففى جيبه ليس غير الهواء وإن كان فى الرأس أغلى الدرر

القاهرة عبد المعطى حجازى

الطريق ، وبانت المطبعة وأصبحت فإذا هي تساقط على رءوس القراء كتبا أقلها قيم ومعظمها هراء ...

واستيقظت فطرة القراء القلائل بطبيعتهم في العربية ، فإذا الإعراض والجفاء عن هذا المكرور المعاد من أعمال الأدباء ، وعن الأدب كله عند كثرة القراء . . وصاحب هذا ركود حركة النقد الأدبي ، النقد الذي يزيف الزائف ، ويستبقي الصحيح ، والذي يخلق في الجو الأدبي حيوية ونشاطا وتطلعا وأخذا وردا ودفعة إلى الأمام

والذي بقي من النقد الأدبي انتهى إلى أن يكون أضحوكة ومهزلة ، فلقد تألفت شبه نقابات أو عصابات ، كل نقابة منها أو عصابة موكلة بالدعاية « لمنتجات الشركة » التي تنتمي إليها بطريقة مفضوحة مكشوفة ، لا تخفى على ذوق القارئ ، ولا تزيد على أن تقتل الثقة في نفسه بما يكتب وما يقال !

وامتدت هذه النقابات إلى دور الصحف والمجلات ، فعسكرت كل منها في مجلة أو صحيفة ، وأصبح محرما على أي كتاب لا ينتمي صاحبه إلى « شلة » معينة أن يجد له من صفحات تلك المجلات والصحف نصيبا . . وبهذا أطبق البلاء على النقد وعلى الأدب سواء ! »

* * *

هذه فقرات مما كتبه الأستاذ الصديق في عدد مضى من الرسالة . فقرات فيها الحق ، وفيها الصدق ، وفيها العرض الموفق لجانب من جوانب المشكلة التي نضعها اليوم على بساط البحث والمناقشة . نقول اليوم ونعني بقولنا الوقت الذي أثيرت فيه ودفعنا إلى شيء من التعقيب ، ونعود إلى الأمس القريب الذي عرضنا فيه للشكلة قبل أن يعرض لها الأستاذ قطب ، هناك حيث قلنا في مقدمة كتابنا الذي سيكون بين أيدي القراء بعد أيام :

« في حياتنا الأدبية ظواهر تستوقف النظر ، وتغري بالبحث ، وتدعو إلى التأمل والمراجعة . وتستطيع أن تسمي كل ظاهرة من هذه الظواهر مشكلة ؛ مشكلة تتعدد فيها الجوانب ، وتتشعب الزوايا ، وتبقى بعد ذلك في انتظار العلاج . . ولك أن تضع مشكلة النقد الأدبي في مقدمة المشكلات التي تعانيها الحياة الأدبية في هذه الأيام !

أول زاوية يمكن أن ننظر منها إلى المشكلة ، هي أن أكثر الذين يتولون صناعة النقد لا يصلحون لها على التحقيق ؛ فبعضهم تنقصه الثقافة الرفيعة فهو من أنصاف المثقفين ، وبعضهم تنقصه التجربة الكاملة فهو من المبتدئين ، وبعضهم ينقصه الذوق المرهف فهو من ضعاف الملكة وقاصري الأداة ! هذه الأركان الثلاثة من أركان النقد الأدبي نضعها مجتمعة في كفة ، لنضع في الكفة الأخرى ذلك الركن الخطير الرابع ونعني به الضمير الأدبي وهو وحده مشكلة المشكلات ... وماذا تجدي الثقافة ، وماذا تجدي التجربة ، وماذا يجدي الذوق ، إذا كان الضمير الأدبي لا وجود له ؟ لا شيء يجدي على الإطلاق ! لأن الضمير يوجه الثقافة فلا تجور ، ويهدي التجربة فلا تضل ، ويرشد الذوق فلا ينحرف . . وماذا نقول وكتاب النقد الأدبي في مصر هم فئة من ذوي الأهواء والأغراض ، يسيرون في ركب هذا وذاك يصفقون وليس هناك ما يدعو إلى التصفيق ، ويهتفون وليس هناك ما يبعث على الهتاف ! ؟ الضمير الأدبي عندنا هو مشكلة المشكلات ، وأعجب العجب أن الذين يتولون صناعة النقد في هذه الأيام لا يشعرون بأنهم معرضون لميزان غيرهم من النقاد ، وأنهم حين يظفرون بثناء بعض الناس يفقدون من الكثرة الغالبة كل احترام وتوقير ، لا يشعرون بشيء من هذا لأنهم أغمار ، ولأنهم أصحاب أهواء وأغراض !

النقد الأدبي في مصر تنقصه هذه الدعائم الأربع مجتمعة : الثقافة ، والذوق ، والتجربة ، والضمير . . . ونقول مجتمعة لأن هناك المثقف المحروم من الذوق ؛ ذلك الذي يوفق حين يقدم إليك نظرية في النقد ويخفق إذا ما وصل إلى مرحلة التمثيل والتطبيق . وهناك المثقف الذي لم يمد ثقافته بروافد من التجربة الكاملة ؛ ونعني بها معالجة الكتابة في النقد الأدبي على هدى الإحاطة التامة بأصوله ومناهجه . وهناك المثقف الذي تجتمع له

الثقافة والذوق والتجربة ولكنه يتخلى عن الضمير ، حين يدفعه الهوى إلى أن يهاجم الخصم ويجامل الصديق !

هذه هي بعض الزوايا التي ننظر منها إلى من يتولون صناعة النقد في هذه الأيام . . وتبقى بعد ذلك زاوية لا تقل عن سوابقها خطورة ؛ وهي أن هؤلاء الناس تنقصهم صنعة التخصص : فبعضهم يتحدث عن القصة وهو لا يعرف شيئاً عن الخطوط الفنية التي تكون الهيكل العام للقصة ، وعن المسرحية وهو لا يدرك على أي الدعائم يقوم البناء الفني للمسرحية ، وعن أدب التراجم وهو لا يستطيع أن يفرق بينه وبين غيره من ألوان الدراسة الأدبية ، وعن الشعر وهو محروم من نعمة الشعور . ومما يبعث على الأسف أن الذين أجادوا التحليق يوماً في أفق النقد قد هجروه إلى غيره من الآفاق ، دون أن يقدروا مدى الفراغ الذي تحسه المكتبة العربية في هذا المجال !

نظرت إلى النقد الأدبي في مصر فوجدته على تلك الحال : يغلب عليه طابع الغفلة والبلادة والجهل والمجاملة ... ونظرت إلى أدبنا في محيط الدراسة الفنية فوجدته في أكثر حالاته أدب المحاكاة الناقلة لا أدب الأصالة الخالقة ؛ أدب الترديد والتقليد لا أدب الإبداع والتجديد : ليس له طابع خاص وليست له شخصية مستقلة ، وإنما ضاع طابعه واختفت شخصيته في زحمة الجلوس إلى موائد الغير بغية الاقتباس من شتى الطعوم والألوان . . لماذا لا تكون لنا آراؤنا الذاتية ونظراتنا الخاصة وأذواقنا المتميزة ؟ لماذا لا نحاول أن نقف على أقدامنا دون أن يساعدنا أحد على الوقوف ، وأن نسير دون أن يدفعنا أحد إلى السير أو يحدد لنا معالم الطريق ؟ لماذا نجبن في أكثر الأحيان عن القيام بمثل هذه المحاولة ؟ أهو ضعف في الشخصية الأدبية يحول بيننا وبين الكرامة العقلية ، أم هو نقص في الوسائل وقصور في الأدوات ؟ ! أغلب الظن أن للناحيتين أثرهما البعيد في صبغ الأدب المصري بصبغة الجمود والركود ، وفي الوقوف به عند تلك المرحلة التي وصفناها بأنها مرحلة المحاكاة الناقلة لا الأصالة الخالقة

إنني أتحدث هنا عن أدبنا المصري في نطاق الدراسة الأدبية والنقدية . . . الدراسة التي تضع تحت المجهر نظرية في الأدب أو مشكلة في الفن ، أو شخصية كان لها في محيط الفكر الإنساني مكان ملحوظ . إننا إذا تحدثنا مثلاً عن نظرية أدبية ظهرت في أفق غير هذا الأفق الذي نعيش بأفكارنا فيه ، كان كل صنيعنا أن ننقلها كما وعيناها فإن زدنا عليها شيئاً فهو من أقوال غيرنا بلا مراء . . . وقل مثل ذلك إذا عرضنا في ميدان الفن لمشكلة من المشكلات أو لشخصية من الشخصيات ، سواء أكانت المشكلة تتصل بكياننا الأدبي أم كانت الشخصية من تراث الغرب أو من تراثنا العربي القديم . لا نحاول مخلصين أن يكون لنا رأي مبتكر يضارع هذا الذي قرأناه ، أو مذهب مبتدع ينافس هذا الذي نقلناه ، أو تعقيب جديد يعترض في جرأة وشعور بالشخصية على وجهة نظر خرج بها كاتب غربي على جمهرة القراء . . . ومن هنا مات أدبنا وانصرف عنه الذين أقبلوا عليه في يوم من الأيام !! »

قلنا هذا في مقدمة الكتاب الذي يتطلع إلى النور في الغد القريب ، ونخرج من هذا الذي قلناه بأننا متفقون مع الأستاذ قطب في هذا الجانب الأول من جوانب المشكلة ، ونعني به نصيب الأدباء في جريمة قتل الأدب كما عبر هو وأصاب في التعبير . ولعلك تلاحظ أن الاتفاق هنا قد تم في ميدانين هما ميدان الأدب وميدان النقد ، بالنسبة إلى ما يتصف به كلاهما من أسباب النقص وعوامل القصور ... وإذا كان هناك اختلاف فهو في طريقة العرض واتجاه خط السير الذي لم يحل مع ذلك بيننا وبين اللقاء في نهاية الطريق !

ومرة أخرى نتفق مع الأستاذ قطب في نظرته إلى الشعر حيث يقول : « ونسيت الشعر المسكين ، وما رزأتنا به المطبعة في هذه السنوات الأخيرة من ركام يتفاخر أصحابه بضخامة الحجم وكثافة الوزن ، ويستميتون بصداقاتهم وبوسائلهم الخفية على الخروج به على الناس في غير ما خجل ولا حياء !

لقد نظر أحد أصدقائنا إلى ديوان من هذه الدواوين ، وقد اكتنز شحماً ولحماً ، وهزل معنى وروحاً ، ثم قلبه في يديه وقال:

قديما كان يقال : حمار شغل .. فها نحن أولاء قد عشنا لنرى : حمار شعر !

وفى هذا الجو تختنق روح الشعر ، أو الأنفاس المترددة فى جوه الكظيم . ويكره الناس الشعر والشعراء ، وينفرون من مجرد رؤية الدواوين ، فضلا عما تحتويه من نظيم ! »

كلمات قالها الأستاذ الصديق وهو يشير إلى ديوان كبير الحجم أخرجته المطبعة منذ شهور ، ولا أظن أن ذلك الديوان بعد هذه الإشارة قد خفى على فطنة القراء ... ولقد قلنا مثلها ونحن نتحدث عن الشعر المصرى فى الأعوام الأخيرة عارضين ومعترضين هناك فى الصفحة الحادية عشرة بعد المائتين من كتابنا الذى يتطلع إلى النور فى الغد القريب : « حياتنا الأدبية تعانى تخمة فى الشعر وأزمة فى الشعور ... إن نظرة واحدة إلى ما تخرجه المطبعة من دواوين الشعر فى هذه الأيام ، تنتهى بك إلى الإيمان بهذا الحكم ؛ الإيمان به كحقيقة ملموسة . ونظرة فيها التذوق والتمعن تسلمك إلى حقيقة أخرى لا تقل عن الأولى صدقا وأصالة وهى أنك لو رحت تبحث وسط هذه التخمة الشعرية عن آثار فنية ترضى الذوق حين تحفل بصدق الشعور ، لما وجدت غير بضعة دواوين لقلة من الشعراء المطبوعين . ونظرة ثالثة فيها التأمل والنفاذ تقنعك بأن أزمة الشعور عند الكثرة الغالبة من شعرائنا مرجعها إلى أن التجربة النفسية قد تمر بهم فكأنما تمر بفراغ موحش ، لا تلق فيه إلا مجموعة حواس معطلة لا تستجيب لأحداث النفس والحياة » !

نحن هنا أيضا متفقون مع الأستاذ الصديق ، فإذا اختلفنا فهو الاختلاف الذى يتمثل فى طريقة العرض واتجاه خط السير الذى لا يحول بيننا وبين اللقاء فى نهاية الطريق !

هذا الأدب المصرى الذى شهدت موته على يد الأدباء المصريين ، هو الذى أحال القلم يوما فى يدى إلى معول ثائر ، معول تنصب ثورته على بعض القيم والأوضاع .. ومن هنا قيل عنى أو قيل لى : إنك عامل هدم فى الحياة الأدبية ولست عامل بناء ! ولم أضق بهذا الاتهام السافر الذى وجه إلى على صفحات « الرسالة » ، لأننى قد طبعت على ألا أضيق بأى اتهام ما دمت قادرا على الدفاع !

قالت وثيقة الاتهام بعد كلام طويل : « إننا نفخر بك ككاتب له رسالة ، وهدف يحاول أن يحققه عن طريق النقد والتوجيه ... غير أن آراءك ونقدك تتسم غالبا بطابع العنف والقسوة ، ولذلك فأنت فى نظرنا عامل هدم ولست عامل بناء . وفرق كبير بين كاتب يحاول أن يضىء شمعة وسط الظلام ، وآخر يسعى إلى ذبالة النور التى يتلمسها كل حائر ليطفئها ! أنت كاتب طويل اللسان من أول يوم خطوته فى طريق المجد ؛ المجد الأدبى الذى يهيب بك أن تبقى على الشموع التى تضىء لنا الطريق » !

وقالت وثيقة الدفاع فى مجال التفسير والتبرير : « يتهموننى بأننى كاتب طويل اللسان ؟ هذا حق لا أجادل فيه ! وأزيد عليه أننى واحد من الذين جبلوا على الصراحة وفطروا على الشجاعة ، حتى لتدفعهم صراحتهم وشجاعتهم إلى أن يقولوا عن أنفسهم ما قد يشفق منه غيرهم من الناس . ولولا هذا الذى فطرت عليه وجبلت ، لما وافقت متهمى على أننى كاتب طويل اللسان أوافقهم على هذه المقدمة وأختلف معهم حول ما انتهوا إليه من نتيجة ، محورها أننى عامل هدم فى الحياة الأدبية ولست عامل بناء ... هنا شىء من الظلم للحقيقة والمجافاة للواقع ، لأننى ما استخدمت طول لسانى فى هدم قيمة من القيم إلا إذا كانت بالية ، ومتداعية وينبغى أن تزول . أعنى أننى لا أهدم إلا ونصب عينى هدف واحد هو أن أقيم البناء الموطد الأركان على ركام الأنقاض !

أقول هذا ولا أريد أن أذكر أسماء من هاجمت من الأدباء . حسبى أننى آمنت وما زلت أومن ، بأن الحياة الأدبية فى مصر محتاجة إلى حركة تطهير يقوم بها لسان طويل ! ذلك لأن الأدب هنا، فى هذا البلد ، أشبه برجل كريم النفس سمح الخلق مضياف : يفتح بابه لكل طارق ، ويهيئ مائدته لكل عابر ، ولو اندس بين جموع الطارقين والعابرين من هم خلاصة الأدعياء والمتطفلين ! هذا الرجل ، الذى هو الأدب ، فى حاجة إلى صديق طويل اللسان ينهر تلك الجموع المتطفلة ، الدخيلة ، التى استغلت سماحة رب البيت ونبل محتده وكرم ضيافته ، فاندفعت من أبوابه وجلست إلى موائده ، فى غير ما خجل ولا حياء ... هذا الصديق الطويل اللسان هو كاتب هذه السطور ، ولا ضير عليه أبدا إذا ما أنقذ الرجل الكريم المضياف من هؤلاء الضيوف الثقلاء ، وألهب

ظهورهم بالسياط !

وليصدقني أصحاب الاتهام أنني أضيق بأضواء الشموع ؛ هذه الأضواء الضئيلة الهزيلة ، التي لا تستطيع أن ترد عادية الظلام . وإذا كنت قد دأبت على إطفائها فلأنني أوثر أن أحدق في أضواء المصابيح الضخمة ، المتوهجة ، التي يغمر شعاعها كل حنية وكل ركن وكل تعريجة في منعطف الطريق . دلتبقى هذه ولتذهب تلك ما دمنا نريد للنور أن يقوى على مواجهة العواصف والأعاصير ؛ هدم للقيم البالية المتداعية يعقبه بناء على ركام الأنقاض ، وإخماد للأضواء الضئيلة الهزيلة يشع على أثره كل نور وهاج .. أهذا هو ما ألام عليه وتوجه إلى من أجله فنون الاتهام ؟ إن الصورة التي تستمد أضواءها وظلالها من هذه الكلمات لجديرة بتأمل العاتبين » !

فقرات أخرى أثبتناها في مقدمة الكتاب الذي يتطلع إلى النور في الغد القريب .. من هم الذين عنيناهم بتلك الفقرات ونحن في موقف التفسير والتبرير ؟ هم أولئك الأدباء المجترون الذين عناهم الأستاذ قطب بكلماته وهو يتحدث عن نصيبهم في جريمة قتل الأدب و « تطفيش » القراء ؛ وهم أيضاً أولئك المتطفلون على موائد الأدب في غير ما خجل ولا حياء ؛ وهم مرة ثالثة أولئك الذين يمثلون العصابات في دور الصحف والمجلات !

هذه العصابات الأدبية قد هاجمت بعضها يوماً على صفحات « الرسالة » هجوماً لا هوادة فيه . . . من هذا البعض عصابة كان يمثلها ثلاثة : أولهم ينسب جهلا إلى الفلسفة ، والثاني ينسب غفلة إلى الشعر ، والثالث ينسب ظلماً إلى الأدب ! وهم بعد هذا كله متطفلون على موائد النقد .. لا يكاد يظهر لأحدهم كتاب حتى يبادر الآخران إلى الكتابة عنه في أكثر من صحيفة ، مشيدين بما تزخر به صفحاته من علم ، مشيرين إلى ما يتمتع به صاحبه من نبوغ ! وتقرأ الكتاب فتضحك ، وتقرأ النقد فتسخر

يريد صديقنا الأستاذ قطب أن يحمل الأدباء ووزارة المعارف ووزارتي المالية والمواصلات مسئولية قتل الأدب . . كلا أيها الصديق ؛ إن الأدباء وحدهم هم المسئولون ! هل وزارة المعارف أو وزارة المالية أو وزارة المواصلات هي التي « طفشت » القراء ؟ إن هؤلاء القراء لم يزهدهم في القراءة ولم يصرفهم عنها غير هذا الأدب الجامد الذي لا حياة فيه ؛ الأدب الذي ينتجه فريق من المجترين وفريق من الأدعياء والمتطفلين ! ترى هل تستطيع تلك الوزارات الثلاث مهما أوتيت من القدرة على إخلاء الطريق أمام أدبنا من العقبات ، ترى هل تستطيع أن تقنع القراء بالعودة إلى هذا الأدب من جديد ؟ لا أظن .. لأن هذا الأدب بوضعه الذي تحدثنا عنه وتحدث عنه الأستاذ الصديق ، لا يمكن أن يحبب القراءة إلى الجمهور القارئ بعد أن خبره مرة ومرات ! لا يمكن أن يحببها إليه ولو رفعت وزارة المالية قيود التصدير ويسرت وزارة المواصلات وسائل النقل وضحت وزارة المعارف فطبعت هذا الأدب على نفقتها ووزعته على الناس بالمجان !

إن المشكلة مشكلة هذا الأدب الجامد الذي لا حياة فيه ، ولن تحل هذه المشكلة إلا إذا بعثنا هذا الأدب من مرقده ونفضنا عنه التراب ، ولن يتم هذا البعث إلا إذا وجد لدينا عدد من الأدباء المجددين ، أولئك الذين يحملون نصب أعينهم أن ينقلوا الأدب من مرحلة المحاكاة الناقلة إلى مرحلة الأصالة الخالقة ... عندئذ يمكننا أن نجبر القراء على القراءة بعد أن نعيد إليهم الثقة المفقودة والإيمان المسلوب ، وعندئذ يمكننا أن نقضي على البقية الباقية من المجترين والمتطفلين ، أولئك الذين يتحملون وحدهم تبعة قتل الأدب في وضح النهار ... مع سبق الترصد والإصرار !

أنور المعداوي

الكتب

نظرات فى اصلاح الريف

تأليف الأستاذ عبد الرازق الهلالي

للأستاذ على محمد سرطاوى

(١٤٣ صفحة ، مطابع دار الكشاف ببيروت — الطبعة الثانية)

هذا كتاب الموسم فى العراق ؛ تلقته النفوس المؤمنة بالإصلاح الاجتماعى ، باللهفة والغبطة ، والشوق ، كما يتلقى الثرى المكدود ، الجاف ، قطرات الغيث ، تهطل من جفون الغيوم ، فأعيد طبعه ، ولما تمض على الطبعة الأولى ، غير بضعة شهور ، فكان ذلك تقديرا ، بليغا ، صامتا لرسالة الكتاب العظيمة

ومؤلف هذا السفر النفيس ، شاب فى طليعة شباب العراق طموحا ، وثقافة ، وتفانيا فى خدمة الهدف المجيد ؛ طوف فى الشرق والغرب ، فأفاد من ذلك تجارب ، لها قيمتها ، وخطرها ، وأثرها فى صقل مواهبه وتجاربه وتوجيههما التوجيه الذى ربط روحه بأرواح اللايين المعذبة من أبناء جنسه ، فى سبل الحياة ، فانعكست منهم على نفسه تلك المعانى التى تقشعر من هولها الأبدان ، مجسمة لأولئك البائسين ، فى مظاهر الجوع والمرض والجهل ، فكان هذا الكتاب تعبيرا صادقا عن هذه المعانى

درس الآداب متخصصا فى دراسته الجامعية ، وضرب بسهم وافر فيه ، وصال وجال فى ميادينه مؤلفا ، وكاتبا ، ثم مد بصره إلى آفاق القانون فحلق إلى أعاليها كالنسر الجرئ ، ثم راح يتدرج فى الخدمة المدنية من التدريس إلى التوجيه فى وزارة المعارف ثم إلى إدارة نقابات العمال فى مديرية العمل والضمان الاجتماعى ، وأخيرا استقر فى البلاط الملكي العامر ، مساعدا لرئيس التشريفات فى بغداد

والمعذبون فى ريف العراق ، هم أولئك الفلاحون الذين يؤلفون سبعين فى المائة من مجموع السكان ؛ يتضورون جوعا على مدار السنة ، ويتحركون عراة ، حفاة ، مرضى ، على الأرض التى يسخرون على زرعها بالإكراه ، كما تتحرك الأنعام ، التى لا تملك من أمر نفسها شيئا ، وإنما يملك أمرها صاحب الأرض الظالم ، ذلك الراعى ، الذى يذبحها إذا شاء ، ويجيعها إذا أراد ، ويبيعها متى أحب

ومن دواعى الاغتباط العميق ، والأمل الباسم ، أن يبعث الله إلى الظلام الحالك فوق دنيا هؤلاء المعذبين ، إقباسا من رحمته تشرق من قلوب طبقة من الشباب المتزن ، المؤمن بربه ، وعظمة أمته ، لا تعيش على هامش الحياة فى تلك الأبراج العاجية السخيفة التى يلجأ إليها ، عادة ، المهزومون من الحياة ، والذين لا يصلحون لها ، ولا تشعر بوجودهم فيها ، وإنما يضطرمون فى صميمها ، ويجاهدون أحداثها ، ويمدون أيديهم لإنقاذ اللايين من نفوس مواطنيهم ، التى يدفعها الجوع والمرض والجهل إلى تصديق كل ما تزيفه لها الحضارة الغربية من أوهام وأباطيل ؛ ويحولون بين أولئك المواطنين ، وبين الجرى وراء سراب الشيوعية الخادع ، ذلك السراب الذى يتراءى لأعينهم فى بيداء ظلم الحياة وعذابها ، ماء ، وما هو بالماء ... وإنما هو لعاب الشيطان تعكسه زبانية الجحيم على أجنحتها فى الفضاء ، تغريرا بالمغفلين

° ° °

وأصدرت المطابع الغربية كتبا كثيرة ، بعد الحرب العالمية الثانية ، تحدثت فيها عن قصة الجوع فى الشرق الأوسط ، وعن الظلم الاجتماعى ، وما قد يجر وراءه هذا اللون من الاضطهاد والإرهاق للجماهير ، ومن كوارث يخشى منها على هدم هذا المجتمع التعس ؛ وحذرت المسؤولين وأنذرتهم باقتراب العاصفة ، وأوصيت بالقيام بإصلاح شامل سريع

ومن بين هذه الكتب المتعددة ، كتاب بالإنجليزية ألفته المس وارنر ، وقام بنشره معهد العلاقات الدولية فى بلاد الإنجليز تحت عنوان (الفقر والجوع فى الشرق الأوسط)

Food and poverty In The Middle East

والكتاب دراسة مركزة لمشاكل الفلاحين فى مصر وفلسطين وشرق الأردن ، ولبنان وسوريا والعراق ؛ قالت فيه

من مصر ، إن العلاقات التي تربط الإنسان بالحيوان ، عن طريق الرحمة الإنسانية ، والشفقة المطلقة ، لا وجود لها بين مالك الأرض والفلاح هناك ، وحذرت من انفجار اجتماعي مفاجئ قد يعصف بالحياة عصفا عنيفا لا رحمة ولا هوادة فيه ، وأوصلتها دراساتها إلى وجود مليونين من الجائعين في مصر يجب نقلهم إلى العراق للعمل في الزراعة ، بحكم التشابه بين مناخ البلدين ، وبحكم الصلات المتينة من الدم واللغة والدين والجوار بين الشعبين ، ولكنها لم تحبذ ذلك العمل الآن ، لعلمها أن الفلاح العراقي يئن من ظلم أشد هولا ، وأرجأ ذلك العمل إلى ما بعد الإصلاح الاجتماعي الشامل الذي يجب أن يتم سريعا في العراق . .

ومضت تدافع في كتابها عن سياسة أبناء جنسها في مصر وفلسطين وشرق الأردن والعراق ، وعن أصدقائهم الفرنسيين في سوريا ، حينما عجزوا عن تقديم أية مساعدة لتلك الطبقات المعذبة في تلك البلدان التي حكموها حكما مباشرا ، أو غير مباشر ، مدة ثلث قرن من الزمن أو يزيد ، فزعمت في معرض دفاعها ، أن الطبقات الأرستقراطية التي ورثت النفوذ من الماضي ، كانت تحرض ، تلك الجماهير عليها ، عن طريق الوطنية الرخيصة ، الرعناء ، غير الواعية ، وتدفعها إلى الثورة ، فكانت والحالة هذه ، مضطرة إلى مهادنة تلك الطبقات ، وإطلاق يدها ، وإفساح المجال لها تعبث بهذه الجماهير ، وتظلمها وتسومها الخسف كما تشاء وتريد ، حبا في استتباب الأمن

ونحن لا نريد أن نصدق هذا القول ، لا لأنه بعيد الاحتمال ، بل لأن التجارب علمتنا أن نكون حذرين في كل ما نسمعه عنا من أقلام الغربيين ، ونشك فيه ، ونعتبره دفاعا باطلا عن الظلم الذي أصاب هذه الطبقات من أبناء جنسها ، وأصدقائهم الفرنسيين ونرى أن الفرص التي تتيح إشاعة العدالة ، والإصلاح الاجتماعي لم تكن في استطاعة الطبقات العربية التي أشارت إليها ، بحكم سوء التوجيه الخفي ، الذي لا تكاد تجهله المس وارنر ، وتعرفه الدنيا . .

وشيء آخر يراه القارئ المتأمل في ذلك الكتاب ؛ تلك هي الصورة التي رسمتها لشقاء الفلاحين ، فلقد كانت مشوشة ، غامضة ، بعيدة عن الواقع ، بعدا كبيرا ، إذا ما قارناها بتلك الصورة الرائعة التي رسمها الأستاذ الهلالي لأولئك المعذبين بألوان زاهية من دم قلبه ، وعواطفه وحبه العميق

وكلما قارنت هذه الصورة بتلك التي رسمها قلم المس وارنر ، وغيرها من كتاب الغرب لحياتنا الاجتماعية ، كلما ازددت إيمانا بأن صاحب البيت أدرى بالذي فيه ، وكلما بدا لي الضلال المبين الذي نسج في غمرة عقول لا تزال تؤمن بالغرب حتى في الحديث عن أنفسنا ، وعاب أحد أصحاب هذه العقول على المؤلف عدم رجوعه إلى المصادر الأجنبية في وصف حياة الفلاحين في العراق فكانت لفتة غير موفقة ، وزلة كشفت عمله في أعماق النفس ، تستحق السخرية العميقة من المتزنين

ونحن في سبيل الحديث عن الفلاح العراقي . إنما نتحدث عن الفلاح في كل جزء من وطن العروبة ؛ فلقد وحد الألم المشترك والعذاب الذي لا يحتمل ، والظلم الاجتماعي الذي لا يطاق ، بين قلوب أولئك المعذبين ، على بعد الدار ، ونأي المزار ، فكان الحديث عن أية طبقة منهم في أي مكان من الوطن الشامل ، إنما هو الحديث عنهم جميعا

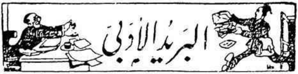
* * *

العراق بلد زراعي ، ومساحته (٤٣٥) ألف كيلو متر مربع ، وعدد السكان فيه يقرب من خمسة ملايين ، وكان هذا العدد زمن العباسيين يزيد على أربعين مليونا . والأرض الصالحة للزراعة في الوقت الحاضر تبلغ مساحتها (٩٢) ألف كيلومتر مربع ، لا يزرع منها غير خمسها

وتقسم الأرض الزراعية إلى منطقتين : شمالية ، وهي الأرض التي تعتمد الزراعة فيها على مياه الأمطار ومساحتها (٤١) ألف كيلو متر مربع ؛ وجنوبية وهي التي تعتمد الزراعة فيها على مياه الأنهار ومساحتها (٥١) ألف كيلو متر مربع

ويتألف سكان العراق ، من البدو الرحل ونسبتهم العددية لمجموع السكان ثمانية في المائة ، وسكان المدن ، ونسبتهم العددية ، اثنتان وعشرون في المائة ، وسكان الأرياف ، وتبلغ نسبتهم سبعون في المائة

وتؤلف القرية في منطقة الأمطار الشمالية ، الوحدة الاجتماعية ، وكان فيها الفلاح على وجه العموم ، يتمتع بملكية



هل مات الأدب :

كتب الأستاذ سيد قطب مقالا بمجلة الرسالة عنوانه (هل الأدب قد مات) . وهـذا التركيب ليس صحيحا ، أو على الأقل ليس فصيحا ، ذلك أن النحاة مجمعون على أن (هل) لها مزيد اختصاص بالفعل ، وأنه إذا كان الفعل فى جملتها اقترنت به ، ولا تقترن بالاسم ، فلا يقال عندهم فى الـكلام الفصيح هل الأدب قد مات ، وإنما يقال هل مات الأدب

نعم تدخل (هل) على الجملة الاسمية الخالصة نحو قوله تعـالى (فهل أنتم منتهون) ؟ وقول الشاعر (هل الأعصر اللائى مضين رواجع) والشواهد على ذلك كثيرة

ولسعد الدين التفتازانى عبارة مستملحة فى التفرقة بين دخولها على الاسم إذا كان خبره اسما ، وعدم دخولها عليه إذا كان خبره فعلا يقول : «قالت الفرق أنها — يريد هل — إذا رأت الفعل فى حيزها تذكرت عهودا بالحمى ، وحنت إلى الإلف المألوف وعانقته، ولم ترض بافتراق الاسم بينهما ، بخلاف ما إذا لم تره فى حيزها فإنها تسلت عنه ذاهلة »

ويقول فى موضع آخر : وما ذكره صاحب المفصل من أن نحو هل زيد خرج على تقدير الفعل فتصحيح للوجه القبيح البعيد ، لا أنه شائع حسن

وحتى على ما يرى الزمخشرى لا تستقيم عبارة الأستاذ قطب ، فإن الـكلام عليه يقدر هكذا ، هل قد مات الأدب ، لأن دخول (هل) على (قد) ليس بشئ

على العمارى

كلمة موجزة حول رسالة الأزهر :

لاجرم أن الذين يكتبون عن الأزهر فى هذه الأيام منصفون مخلصون ، يدفعهم إيمانهم بمكانته ، وفهمهم لحقيقة رسالته ،

صغيرة ، وشبه استقلال ، ولـكن مرور الزمن ، جعل (المختار) أو (الآغا) مستبدا ، فاعتدى على الفلاحين ، واستولى على أراضيهم ، وسكتت السلطات ، وغضت الطرف عن هذا الظلم ، حتى غدا الفلاح عاملا مأجورا (الأغوات)

أما فى الجنوب ، فتتألف الوحدة الاجتماعية ، من القبيـلة ، عمت منذ زمن موغل فى القدم بحق المعيشة فى أراض واسعة ، يطلق عليها اسم (الديرة) ، وزعت الأراضى منها على الرؤساء ، والمشايخ ، وغدا أفراد القبيلة مزارعين عند هؤلاء ، لا يمـلكون شيئا . . .

وهذا النوع من الملـكية فى المنطقتين المذكورتين ، ليس إلا لونا من ألوان الإقطاع البغيض ، يجعل لفريق من أبناء الأمة سلطانا على أرض الوطن وأبنائه ، مرتـكزا على حق الوراثة ، أو حق الغزو ، أو حق العصيان ، وسلطان من هـذا النوع ، لا يستمد قوته من إرادة الأمة ، ولا يوافق مصالحها ، ويجب القضاء عليه

وظيفة الفلاحين لا تتناول ما يكفيها من الأغذية المكونة للطاقة الحرارية ، أو المـكسبة المناعة ، فهم فى شبه جوع دائم ، ويمكن القول أن ثمانين فى المائة من السكان لا تتوفر فى أغذيتهم المواد التى يحتاج إليها الجسم

وسوء التغذية يجعل الجسم عرضة للأمراض الفتاكة التى يشكومنها الفلاح العراقى ، كالملاريا ، والبلهارسيا ، والإنكلستوما ، والزحار ، والسل الرئوى ، والزهرى ، والتراخوما

وعدد الأطباء فى العراق (٨١٦) طبيبا ، ويتركز منهم فى بغداد ولوائها (٥٢٧) طبيبا ، ويبقى لألوية العراق الأخرى البالغ عـددها ثلاثة عشر لواء (٢٩٩) طبيبا ، ومن تحصيل الحاصل أن يزعم إنسان أن فى مقدور هذا العدد الضئيل ، مكافحة تلك الأمراض الفتاكة

على محمد سرطاوى

(البقية فى العدد القادم)

ومعرفتهم بكنه منزلته ، وما يجب أن يكون عليه أهله ـ يدفعهم ذلك إلى الصراحة فى القول ، والجرأة فى تصوير الداء ، وتشخيص العلة ، وتجسيم المرض ، ثم إلى وصف الدواء أخيرا .. والصراحة لا تتقبلها النفوس بارتياح فى هـذه الأيام ، ولا ترى فيها محض النصح ، ولا خالص الإرشاد ، بل على العكس من ذلك ، وقد ترى فيها سوء النية ، وفساد الطوية ، والرى إلى التجريح ، والسعي إلى التشهير والتقبيح ، سواء بالإفصاح أو التلميح . !

ولذا ، فإن هذه الصراحة تؤذى بعض رجال الأزهر ، ممن يعتزون بأزهريتهم ، ويحرصون على كرامتهم ، ويرون فى تجسيم الداء ، وتكبير العلة ، وتضخيم المرض ، تجنيا على الأزهر والأزهريين ، ويذهبون إلى أبعد من ذلك ، فيعتقدون أن هناك نية مبيتة ، تهدف إلى النيل منهم ، والطعن فيهم ، وتهوين عملهم ، وبخاصة فى هـذه الأيام بالذات ، حيث يرون عملهم عظيما ، وجهدهم كريما ، ولهـذا يعملون جاهدين لإنصافهم ، ويسعون جادين لنيل حقهم المهتضم ، والذود عن حوضهم المهتدم ، والدفاع عن حماهم المستباح ...

ومما لا شك فيـه أن المنصف يرى فيما نشر عن رسالة الأزهر ، تجنيا إلى حد ما ، ففيه تغافل عن جهود الأزهر فى مختلف نواحى الحياة ، حتى جهوده التى تعتبر عماد حياته ، وجماع كيانه ، وأساس وجوده . .

فالثقافة الإسلامية الحية المطبقة على واقع الحياة والتى يريدها الـكاتب ، تدرس فى كليات الأزهر الثلاث ، كلية اللغة العربية ، وكلية أصول الدين ، وكلية الشريعة ، دراسة مستفيضة ، لا توجد فى أى معهد بماثلها ، فى مصر كلها ، بل فى الشرق العربى ، أو العالم الإسلامى .. تتناولها كل كلية من زاوية خاصة ، وتلونها بلونها ، وتطبعها بطابعها .. دراسة عامة شاملة بادئ ذى بدء ، ثم تعطى اهتماما خاصا بما يتصل بها ، بالقدر الذى تسمح به مناهجها ، ويعطيك فى الوقت نفسه فكرة إسلامية ناضجة فى هذه النواحى الثلاث ، من حيث اللغة والأدب ، والعقيدة الخالصة ، والفلسفة الفاحصة ، والشريعة ومسائلها ، وفروعها وأحكامها . .

هـذا ما يجدر بالمنصف أن ينكره ، أو يسقطه من حسابه عنـد الحديث عن الأزهر ورسـالته ، أو يتغافل عنه ويتناساه ، كما لا يجوز له أن ينكر ما يقوم به بعض أساتذة الكليات الأزهرية ، وكبار العلماء ، والمتخرجين فى الأزهر وكلياته ، بل وبعض الطلاب فيه .. لا يجوز أن ينكر ما يقومون به من جهد واضح ، وسعى دائب ، فى توضيح المذاهب الإسلامية المختلفة ، والآراء الفقهية المتباينة ، وإلقاء الأضواء على جوانب الحياة الإنسانية ، كما يراها الإنسان ، فى المناسبات المختلفة ، سواء بالخطب والمحاضرات ، فى الأندية والمجتمعات ، أو بالأحاديث الدينية والاجتماعية والأدبية فى الذياع ، فى الصباح والمساء ، أو بالمقالات والرسائل فى الصحف والمجلات ، إلى غير ذلك مما يؤمن الآن ويلمسه كل إنسان . .

ولست أدعى أن هذا كل رسالة الأزهر ولا شئ غير ذلك ، وإنما هو بلا شك من رسـالته . وإننا لنتطلب من رجاله دائما المزيد من هـذا الجهد المشكور ، حتى يصل صوتهم إلى كل فج من فجاج الدنيا ، وكل رجا من أرجاء الوجود ، وحينئذ نقول بحق إن الأزهر قد أدى رسالته . .

وإذا كنا نغتفر للعامة والسوقة من الناس بعض التطاول على تراثنا الجليل ، ومخلدات مصر الإسـلامية ، التى ينظر إليها العالم الآن نظره إلى شئ مقدس ، له احترامه ومكانته ، ومنزلته فى النفوس ، فإننا لا نغتفر ذلك للمثقفين المتعلمين ، الذين نعتبرهم خاصة هذه الأمة الـكريمة ، وقلبها النابض ، وفؤادها الخافق ، وعقلها المفكر ، ولسانها الناطق باسمها فى كل مكان ..!!

إننى لأعجب بالغ العجب لعقلية حديثة تنظر إلى الأزهر الآن نظرة عامية عتيقة . وكأنها لا تسمع له صوتا ، ولا ترى له جهدا ، ولا تعترف بما فيه من مواد مختلفة ، ونظم قد تكون حقيقة فى حاجة إلى التعديل والتهذيب والتنسيق ، ولـكنها ليست فى حاجة إلى الهدم المطلق ، والنقـد بلا معيار أو حدود . . وإذا نوقشت فيما تقول ، وروجعت فيما تدعى ، يظهر لك بجلاء جهلها المطلق بنظم الأزهر ، ومواده المختلفة ، وطرق الدراسة فيه . .

إن الأزهر الآن يقوم بالتدريس فيه أساتذة مشهود شأنهم معروف أمرهم ، من ذوى الـكفايات الممتازة ، والدراية الواسعة ،

قد تخصص كل منهم فى المادة التى يدرسها ، متفرغ تفرغا تاما لخدمة هذه المادة ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وتدريسها على خير ما يرجو المخلصون والمصلحون ..

ولا ننكر أن هناك بعض العوامل والموانع التى تعوق هؤلاء الأساتذة عن تنفيذ كل ما يرجون من إصلاح ، ويرون من حذف أو إضافة فى بعض المواد ، أو تغيير فى طرق التدريس ، أو الكتب المقررة ، إلى غير ذلك مما يدعو إليه التطور العلمى ، ولكن هذا لا يمنع من أهمية ما يدرس الآن ، وأن ننظر إلى الأزهر دائما نظرتنا إلى حصن العروبة الحصين ، ومعقل الإسلام المنيع ، وأن نتناوله بالإصلاح الشامل فى رفق وتؤدة وهوادة ، ولا نهاجمه فى عنف وشدة ، لنجعل ذلك طريقا إلى الشهرة ، وسبيلا إلى ذيوع الصيت ، وطيران الذكر ، موحين إلى الناس إيحاء سيئا أن الأزهر ورجاله رمز الرجعية وعنوان الجمود..

إنى أربأ بكاتب مصرى أن يفعل ذلك . أو يحاوله ، لئلا يوجد الفرصة لأعداء الأزهر ، وأعداء الدين على السواء ، من للتجنى عليه ، والنيل منه بغير حق ، لأن الأزهر مهما حاول المحاولون ؛ هو عنوان الدراسات العربية ، والبحوث العقلية والشرعية فى مصر والعالم العربى والإسلامى فيما مضى ، وفى هذا الزمان . .

عبد الحفيظ أبو السعود



أشجار السنديان

للكاتب الروسى الكبير ايفان بونين

للأديب حسن فتحى خليل

كنت حينئذ فى الثامنة والعشرين من عمرى ، ولقد حدث هذا منذ زمن بعيد ، أيام القيصر نيقولا الأول ، وكنت قد عينت ضابطا فى الحرس القيصرى

وفى تلك السنة التى لن أنساها منحت إجازة أسبوعين لزيارة عائلتى فى أملاكنا القريبة من ريازان حيث تقيم والدتى بمفردها بعد وفاة والدى

وما أن وصلت البلدة حتى وقعت فى شباك الحب فلقد ذهبت لتفقد أملاك جدى بالقرب من قرية بتروفسكوى التى لا تبعد عن ضيعتنا كثيراً ، ومنذ ذلك اليوم وأنا أحاول أن أجد عذرا لمعاودة الذهاب إلى هناك دائما ، فالريف الروسى ريف مقفر وخاصة فى فصل الشتاء ، ولكن قرية بتروفسكوى قد أحسنت الطبيعة وضعها ، يقوم على أطرافها متنزه صغير يطلقون عليه « أشجار السنديان » فهو يتاخم مجموعة من أشجار السنديان الضخمة العتيقة — يقبع تحتها كوخ قديم فى محاذاة الحديقة المغطاة آنئذ بالثلوج ، ويتناثر بقربه حطام مالك المقاطعة القديم المتداعى هناك .. وفى هذا الكوخ القابع تحت أشجار السنديان كنت أذهب يوميا لأبادل لامز محضر المحكمة الذى يقطن هناك أحاديث تافهة لا معنى لها ، محاولاً أن أكسب صداقته ، وأنا أبعث نظرات دافئة إلى زوجه الصامتة أنفيسا التى تبدو وكأنها امرأة أسبانية أكثر منها فلاحة روسية ساذجة . كانت فى نصف عمر لافر ، ذلك الفلاح القاسى بوجهه الأحمر ولحيته النحاسية كأنه زعيم عصابة من اللصوص

كنت أقرأ فى الصباح أى شئ يقع تحت يدى ثم أقوم إلى البيان فأعزف وأنشد أغنية « أيتها النفس .. هل تلتمسين الحب أو الفناء ؟ » وبعد تناول الغذاء أستعد لقضاء الغروب فى « أشجار السنديان » بالرغم من الرياح والعواصف

وهكذا انقضت عطلة عيد الميلاد وقرب ميعاد عودتى إلى عملى ، وقد أخبرت لافر وأنفيسا يوما فى عدم مبالاة بقرب سفرى فقال لافر ، إن خدمة الإمبراطور طبعا مقدمة على كل شئ .

ثم استدار خارجا من الكوخ ليحضر شيئا ما ، وكانت أنفيسا تجلس وعلى ركبتيها ثوب تخيطه ، فتابعت زوجها بعينيها الأسبانيتين.

وفى اللحظة التى أغلق فيها الباب خلفه رفعت إلى عينيها الدافئتين وقالت فى همس :

« يا سيدى . . إنه سيقضى ليلته غدا فى القرية ، فتعال هنا لنقضى أمسية الوداع ، لقد كنت أخفى ذلك فى قلبى . ولكنى الآن أصرح لك بكل شئ . . فإن أشد ما يؤلمنى هو أن أفترق عنك »

ولقد غمرنى هذا التصريح بالغبطة طبعا ولكنى حاولت أن

أهز رأسي موافقا إذ دلف لافر بعدها إلى الكوخ

ويمكنك تخيل اللهفة التي كنت أشعر بها وأنا أنتظر ذلك الموعد . لم أدر ماذا أفعل لأقطع الوقت حتى غروب اليوم التالي . وكنت أفكر في شيء واحد فحسب ، سأترك كل شيء وسأستقيل من فرقتي وأقضي بقية عمري في الريف وأربط حياتي بها حين يموت لافر . . وهكذا كنت أحدث نفسي « أنه رجل عجوز . . ويجب أن يموت وشيكا » بالرغم من أني لم أضع في اعتباري أنه ما زال في الخمسين من عمره فقط

وأخيرا انقضى الليل ، فجلست أدخن في غليوني وتناولت بعض الشراب وأعلتني تخيلاتي الحارة حتى انقضى النهار الشتوي القصير ، وابتدأ الظلام يهبط ، وقامت عاصفة هوجاء في الخارج . وتساءلت كيف أغادر المنزل وأي عذر أنتحله لوالدتي ؟ فلم أحر جوابا حتى خطرت لي فكرة مفاجئة . سأتسلل سرا . . وهذا كل ما في الأمر

وتظاهرت بأني متعب فلم أتناول العشاء وأويت إلى فراشي . وما أن انتهت والدتي من تناول عشائها ودلفت إلى حجرتها حتى أسرعت بارتداء ملابسي في خفة وأسرعت إلى الاصطبل وطلبت من الخادم أن يجهز لي المركبة الخفيفة

كان الجو في الخارج قاتما حتى أنه يتعسر عليك أن ترى ما هو أمام أنفك بالرغم من الثلوج المتساقطة العاصفة . ولكن الحصان كان يعرف الطريق جيدا ، وما أن مرت نصف الساعة حتى ظهرت أشجار السنديان حول الكوخ ، ولمع الضوء الخافت في النافذة ، فربطت الحصان وألقيت عليه غطاء ثم ركضت نحو الكوخ وهناك وجدتها في أكمل زينتها ووهج شعلة الخشب يلقي على وجهها ظلالا جميلة وقد جلست على مقعد بجوار المائدة . كانت تنتظرني بكل ما في عينيها من حرارة . كانت الظلال المرتعشة تغطي جوانب الحجرة بالنسبة لذلك الضوء الخافت ، إلا أن عينيها كانتا أكثر لمعانا من كل شيء . . عيناها الواسعتان العميقتان . وكانت على الموائد أطباق بها جوز وبسكويت وإناء مملوء بالخمر المعتقة وكوبان صغيران ، بينما جلست هي وقد أولت ظهرها إلى النافذة الصغيرة المغطاة بالثلوج وقد ارتدت فستانا حريريا بأكمام واسعة وحول رقبتها عقد من المرجان وتركت شعرها الناعم يموج على كتفيها بينما يتدلى من أذنيها قرطان من الفضة ، وما أن رأتني حتى هبت واقفة وأسرعت تخلع قبعتي المغطاة بالثلج ومعطفي وسترتي ودفعتني إلى المقعد ، وفي نشوة حارة ، لم أكن أعتقد أنها قادرة عليها ، وكنت أظنها من قبل امرأة مترفعة صعبة المنال ألقت بنفسها علي واحتضنتني وهي تمسح وجهي بخديها الناعمتين

فقلت « كيف أخفيت كل ذلك حتى الوقت الذي حان فيه فراقنا ؟ »

فأجابتني في عاطفة دافقة « آه ... ماذا أفعل ؟ لقد استوليت على قلبي منذ مجيئك إلى هنا لأول مرة وكنت أشعر بآلامك ، ولكني شريفة ولم يسبق لي أن زللت ، أضف إلى ذلك أنه لم تكن هناك أية فرصة تسمح لي بأن أطلعك فيها على مكنون قلبي ، فلقد كان هو دائما بيننا ، ولم أتمكن حتى من مجرد مبادلتك نظراتك ، فهو حاد البصر كأنه النسر ، ولو لاحظ شيئا لقتلني للتو »

وعادت تحتضنني وهي تضغط يدي بين ركبتيها ، وأحسست بحرارة جسدها على فخذي فكدت أفقد توازني ، وإذا بها تقفز فجأة وتنظر إلي في اضطراب وهي تقول : « أتسمع ؟ فأرهفت أذني ولكني لم أسمع شيئا سوى زئير العاصفة . ولكنها همست قائلة : « لقد وصل . . »

وأسرعت تجلس إلى المائدة وهي تحاول ضبط أنفاسها المتلاحقة ، ثم قالت في صوت طبيعي مرتفع وهي تفرغ الإناء بيدها المرتعشة « لتشرب قليلا من خمرنا المعتقة ياسيدي ولتأكل فإنك ترتعش »

ودخل هو في هذه اللحظة وثيابه وقبعته مغطاة بالثلوج ، ونظر حوله ثم قال في صوت خفيض « مساء الخير ياسيدي » وخلع ملابسه ثم نفض عنها الثلج وعاد يقول « حسنا » يا له من جو ، لقد وصلت حتى بوابة دتوري ثم وجدت أنه لا فائدة ترجى إذ سأفقد طريقي لا محالة ، فذهبت إلى الخان وتناولت بعض الطعام ووجدت أنه من الأوفق أن أعود أدراجي ، فما قيمة العمل في مثل هذا الجو الثائر المجنون »

بقينا صامتين ونحن نجلس مذهولين مضطربين فقد لاحظنا أنه أدرك كل شيء من أول نظرة ، فلم ترفع عينيها إليه ، أما أنا فقد كنت أنظر نحوه من وقت إلى آخر ، ويجب أن أعترف أنه كان مهيبا وهو واقف بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين وحزامه الأخضر حول وسطه وحذائه العالي ووجهه الأحمر من لسع الريح

ولحيته تلمع فيها حبات الثلج وعينيه تفصحان عما يدور في رأسه من أفكار مخيفة

وتقدم فأشعل قطعة أخرى من الخشب ثم جلس إلى المائدة وأمسك بإناء الخمر بأصابعه الغليظة وأفرغ منها في الكوب ثم شربها حتى الثمالة ثم قال دون أن ينظر حوله «لا أدرى كيف ستعود ياسيدي، لقد تأخر الوقت بك وجوادك غارق في الثلج، ولكن أرجو ألا تغضب مني إذا ما اعتذرت عن مصاحبتك فإني جد متعب من رحلتي، أضف إلى ذلك أني مشوق إلى زوجتي التي لم أرها طيلة النهار.. وعندي من الأحاديث ما أريد أن أبثها إياها»

وفي الصباح حين لاح ضوء النهار وصل أحد الفلاحين من بتروفسكوي وأخبرنا أن لافار شنق زوجه مساء الأمس بحزامه الأخضر وعلقهـا بخطاف في الباب. وفي الصباح ذهب إلى بتروفسكوي وأعلن الفلاحين صائحاً «يا جيراني» لقد وقعت بي مصيبة فإن زوجتي شنقت نفسها، لقد أصابها مس من الجنون، فلقد عدت في الفجر فوجدتها معلقة هناك، وجهها أزرق ورأسها مدلى على صدرها، كانت في كامل زينتها لسبب ما وقد طلت خديها الحراوين.. وها هي هناك معلقة وقدماها تكادان تلامسان الأرض «اشهدوا معي يا إخواني» فنظروا إليه وقالوا «ما الذي فعلته أنت بنفسك أيها الحضر. كيف تأتي للحيتك أن تنتف هكذا.. وما هذا الخمش في وجهك من أعلاه إلى أسفله. وما زال جرح عينك يدمي.. هيا أوثقوه أيها الإخوان»

وكان نصيبه الجلد.. ثم أرسل إلى سيبيريا ليعمل في المناجم

أحمد فتحي خليل

ظهر المجلد الثالث

من كتاب

وحي الرسالة

فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

والقصص

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك

مطبعة الرسالة